كتابي



التجاوب فى الحب ! (لوحة بريشة الرسام "مورو" لأحد مشاهد الكتاب الخالد "اعترافات جان جاك روسو")

حلمي مراد

١٠ قروش



« مسز سيدونز »   لوحة للفنان « توماس جينسبورو »

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعـار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الخامس والستون (السنة السادسة) : اغسطس ١٩٥٧

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب



قرأت وشاهدت لك
في الكتب .. والمسارح .. والحياة !

الزوجة المثالية !

من اين نبدأ سياحتنا الفكرية هذا الشهر ؟

أعتقد انه لن يفتح شهيتك وشهيتي للقراءة فى هذا القيظ ، خير من هذا البحث اللطيف الممتع الذى كتبه البروفسيور « وليم ليون فيلبس » ، استاذ الادب الانجليزى بجامعة (ييل)،وتناول فيه موضوع «الزوجة المثالية » .. فتعال معى ، ومع الكاتب ، نبحث عن .. « الزوجة المثالية » !

• ترى من الذى ابتكر الزواج ؟

انني لا ادرى ، ولو عرفت لوضعت اسمه فى المرتبة الاولى قبل اسماء أكبر المخترعين ، الذين لم تتفتق اذهانهم الا عن اجهزة علمية .. وأنا أقول « اسمه » ـ وليس «اسمها» ـ عن تعمد وقصد ، **لانني موقن من انه كان رجلا ! .. فما كان مثل هذا الشيء ليخطر ببال امرأة ، ولو انه خطر لها لفكرت مرتين قبل ان تجاهر به ! . ذلك لان كل امرأة تستطيع ان تعيش حياة هانئة بدون رجل ، لانها فى سريرتها كالقطة : مستقلة ، وقادرة على ان تكفى نفسها بنفسها . أما الرجل الاعزب ، فانه كالكلب الضال .. حتى اذا اوتى من المال ما يمكنه من ان يجهز مسكنه أفخم تجهيز ، فان هذا المسكن لن يعدو ان يكون صورة مبهرجة لـ .. « حظيرة الكلب » !.. ومن ثم فان صاحبه لا يأوى اليه طالما وجد بابا آخر مفتوحا فى وجهه !**

ولقد قدر للكاتب الروسى « ايفان تورجنيف » ـ دون الروائيين اجمعين ـ ان ينعم فى حياته بأن يرى كتبه تضم الى الكتب الخالدة ، وان يطمئن الى ان رسالته لن تضيع فى زوايا النسيان .. فماذا كان رأيه فى هذا المجد ؟.. لقد كان

اعزب ، وكان يقول انه على استعداد لأن يضحى بكل فنه ، وكل كتبه ، وكل شهرته ، فى سبيل ان يحظى بأمرأة تحمل همه ، وتغضب او تجزع اذا ما عاد الى داره متأخرا عن موعد العشاء !

الزوجة : نعيم وجحيم ، فى وقت واحد !

• **ولعل** معجزة الزوجات تتمثل فى انهن اكثر مثالية واكثر واقعية من ازواجهن ، فى وقت واحد .. انهن وحى والهام .. وهن ـ فى الوقت ذاته ـ واقعيات يبددن الأحلام!.. انهن يعتقدن فى الكنيسة ، ويحفلن بالموسيقى، وبمعارض الفن ،وبالشعر..**ويوحين للرجال بأبهج العوالم ويستدرجنهم اليها .. ولكنهن ـ فى نفس الوقت ـ يهبطن بازواجهن من من هذه العوالم الحالمة الى حضيض الارض ، بما يشرنه من شقاق هائج من أجل مسائل تافهة !**

ولو اننا استندنا الى الروايات المعاصرة فى البحث عن بيانات عن نجاح الزواج كنظام اجتماعى ، لخرجنا بصورة تدعو الى التشاؤم : فما أسعد الشعب الذى لا تاريخ له ،وما اسعد الزواج الذى لا اخبار عنه !.. ذلك لأن الزواج التعس يعتبر « خبرا ناجحا » ، وهذا هو السر فى انه يبرز فى الصحف بشكل مثير للمشاعر ، وفى انه يتخذ أساسا للقصص والروايات . ولو اننا اعتمدنا على القراءة ـ دون المشاهدة ـ لخيل الينا ان العام الاول فى الحياة الزوجية هو أسعد الاعوام، وان العاطفة ـ التى تكون خلاله متأججة ـ لا تلبث ان تخمد، وان كلا من الزوج والزوجة لا يلبث ان يرمق الآخر فى غير اكتراث ، قد يصل الى الازدراء !.. هذا ما توحيه القراءة ، ولكن الواقع على النقيض !

حدث اثناء شبابى ان تزوج أحد زملائى فى الدراسة ، من فتاة فاتنة .. وبينما كانا فى رحلة الزفاف ، اصيب

بمرض فجائى ، فلم تنقض ايام قلائل ، حتى ودع الحياة . وفيما كنت اتحدث عنه لرجل من المسنين ، صحت : «أهناك ما هو أدعى للأسى من هذا الحظ الذى منيت به زوجته ؟ » .. وشدما كانت دهشتى حين أجاب : « اجل .. لقد مات صاحبك ولما تنقض أيام معدودات على زواجه .. **وكانت نكبة زوجته خليقة بان تكون اكثر ابلاما لو انه عاشرها خمسة وعشرين عاما ، فان اقسى النكبات هى ان يفقد المرء شريك حياته .. زميل العمر ! »**

وكان الرجل على صواب . فان الحب العميق لا يتبدى فى عبارات الوجد والهيام ، وانما هو يتجلى فى الملاحظات العابرة ، التى على شاكلة : « لا تخرج بدون معطفك » ،فان عبارة كهذه توحى بمدى اهتمام الزوجة بأن لا ترى زوجها يصاب بالزكام !.. ولكى يعيش المرء هانئا ، لابد له من شخص آخر ينظر اليه باعتباره «الأوحد ، المقدم على عداه» .. واذا ما قدر له ان يفقد هذا الشخص ، عز عليه ان يجد من يحل محله !

ومقدرة المرأة على ان تقف الى جانب زوجها ، أو ابنها ، أو أخيها ، فتسانده وتشد أزره ، هى أسمى خصالها . وكم من رجال – لا حصر لهم – يعيشون فى هم مقيم من ان يفقدوا أعمالهم ، فاذا سألت الواحد منهم عن ذلك الهم ،ذكر لك ان اقسى منابعه هو الاشفاق على المرأة – التى تنتظره فى البيت – من ان يعود اليها بنبأ فقدان عمله !.. **ومع ذلك ، فما اكثر الآلاف من الازواج الذين عادوا الى دورهم واليأس يتملكهم لانهم فقدوا موارد عيشهم ، فاذا بهم يتلقون من الزوجات كلمات العزاء والتسرية والتشجيع ، بدلا من عبارات اللوم أو الجزع أو .. حتى الصمت المعبر عن الأسى!**

ان اعظم روائى فى تاريخ الادب الامريكى – وهو « ناثانييل هوثورن » – لم يكن مدينا بنجاحه فقط للالهام اليومى الذى

كان يتلقاه من زوجته ، وانما كان مدينا لها كذلك بفرصته الاولى فى ترتيب ذهنه ، قبل ان يكتب ابدع انتاجه . فقد كان يعمل فى الجمارك ، ففصل من عمله ، وعاد الى بيته مثقل القلب ، يحمل الى زوجته انباء خيبته . وشد ماكانت دهشته حين اشرق وجهها بالحبور وهتفت : « الان تستطيع ان تؤلف الكتاب الذى كنت تتوق الى تأليفه ! » .. فتساءل فى حيرة : « ولكن .. علام نعيش الى أن أفرغ منه ؟ » . وبهت « هوثورن » حين فتحت زوجته أحد الأدراج، واطلعته على كومة من النقود كانت تدخرها .. حتى اذا شهدت ذهوله ، قالت : **« يا زوجى العزيز ، لقد كنت اعرف دائما انك عبقرى ، وكنت أوقن بأنك ستكتب يوما تحفة خالدة ، ومن ثم رحت ادخر من نفقات البيت اسبوعا بعد أسبوع » .. وجلس هوثورن الى مكتبه ، فعكف على كتابة ابدع قصة نشرت فى أمريكا ، وهى : « الوصمة القرمزية »**

وقدر لاسم « ناثانييل هوثورن » الخلود .. ولكن واحدا لم يسمع باسم « صوفيا » زوجته !

الفندق الذى شهد أحداث قرن !

• واحتفل المجتمع فى القاهرة هذا الشهر بافتتاح فندق (شبرد) الجديد الفاخر الذى شيد على طراز عربى مستحدث وأثث بأثاث فرعونى «عصرى» ، فجاء آية فى الفخامة والرواء ، تضارع أفخم فنادق العالم . وقد أصدرت مصلحة البريد - احتفالا بهذا الافتتاح - طابعا تذكاريا يحمل صورة الفندق الجديد

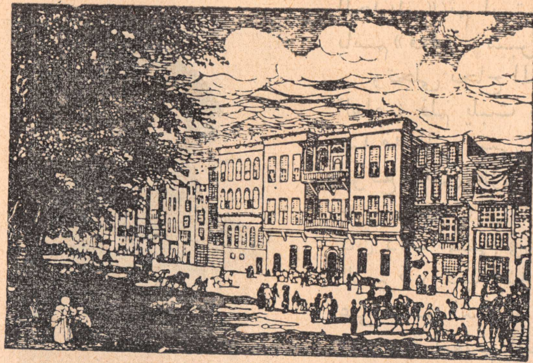
ولهذه المناسبة ، تعال نطالع هذا الكتيب الطريف الذى عثرت عليه ضمن مجموعة من الكتب القديمة ابتعتها من مزاد

.. وعنوان الكتاب «قصة فندق تاريخي : شبرد ، بالقاهرة»، وهو يتضمن معلومات وصورا ذات قيمة تاريخية نادرة حقا. بل ان مظهر الكتيب لايقل ندرة عن جوهره ، فقد طبع طباعة فاخرة فى (نابولى) بايطاليا ، وغلف بغلاف من « البلاستيك » الشفاف نقش عليه رسم زخرفى عربى ملون، من طراز النقوش العربية التى كانت تزين فندق شبرد القديم . **وقد يدهشك ان الكتاب يتألف من ٢٤ صفحة فقط، ومن قطع صغير عجيب اشبه بالـ «منياتير» ، اذ لا تزيد مساحة الصفحة عن سبعة سنتيمترات عرضا ، فى ١٤ سنتيمتر طولا !..** وقد حليت الصفحات برسوم وزخارف شغلت نحو ثلاثة ارباعها ، بحيث لم يبق للنص غير حيز صغير . واليك ترجمة « كاملة » للكتاب :

من لم يسمع بفندق (شبرد) ؟.. ان اسمه يتردد كل حين فى الروايات ، وفى مفكرات المسافرين ، وفى القصص التى تروى بعد العشاء .. بل ان بعضنا يحتفظ بذكريات مبهمة عن المرة الأولى التى قرأ فيها اسم هذا الفندق فى أحد كتب المغامرات التى قرأها فى ايام الطفولة ! .. ذلك ان (شبرد) هو اليوم اكثر من مجرد فندق . انه « مؤسسة » تفخر بتاريخ يشبه ، فى تلونه وتنوعه ، الجماهير المتباينة التى تتوافد على شرفته وتزدحم فى ابهائه فى موسم الشتاء ، حين يتصافح الغرب والشرق امام ابوابه أو فى ردهاته الفسيحة

تاريخ حافل !

• **وقد** أسس فندق شبرد الاصلى فى عام ١٨٤١ ـ قبل افتتاح قناة السويس بنحو ثمانية وعشرين عاما ـ وفى العام الذى وضعت فيه دول الغرب حدا للحرب الدائرة بين باشا مصر المعروف « محمد على » ، وبين السلطان العثمانى أو (الباب العالى) ، وقد منحت أسرة محمد على ـ على اثر ذلك ـ



فندق «شبرد» الاول كما كان يبدو فى عام ١٨٤١

الحق الوراثى فى تولى ملك البلاد .

وفى تلك الايام ، كانت الرحلة من اوربا الى الهند والشرق الاقصى تستغرق شهورا، فكان يطيب للمسافرين ان يتسكعوا فترة من الوقت فى القاهرة ، فى طريقهم الى وجهاتهم . وكانوا يقطعون المسافة من القاهرة الى السويس فى بداية الأمر بطريق القوافل .. ولم يلبث تطور التجارة بين أوربا والشرق أن جلب طوفانا متزايدا من السائحين كما تهبط الطيور لتستريح فترة قبل ان تواصل رحلتها الطويلة . **وكانت هناك فى تلك المنطقة يومئذ بركة يطلق عليها اسم (بركة « ازبك ») ، تشغل المكان الذى تقوم فيه اليوم حديقة « الازبكية » ، وقد سميت هكذا باسم بطل كان شوكة فى جنب السلطان التركى « بايزيد » ، فى نهاية القرن الخامس عشر** .. وعلى مقربة من هذه البركة، انشأ شخص انجليزى يدعى « شبرد » أول فندق يحمل هذا الاسم ، لينزل فيه المسافرون فى طريقهم الى الهند والشرق . وقد أطلق شبرد على فندقه فى البداية اسم « الفندق البريطانى



مستر «شبرد»
مؤسس الفندق

الجديد »، ثم استبدله بعد ذلك باسم « فندق شبرد البريطانى »
وتجلى نجاح المشروع فى نفس العام ، فلم يلبث شبرد ان نقل فندقه الى مبنى اكبر ، (فى الموقع الذى ظل يشغله الفندق حتى احترق فى ١٩٥٢) . وقد كان ذلك المبنى فى الاصل قصرا للأميرة زينب، ابنة الوالى محمد على ، ثم استخدم فى وقت ما مدرسة لتعليم اللغات ، كما انه كان ذا ماض تاريخى ، **ففيه أقام الجنرال « كليبر » وضباط قيادته حين عهد اليه نابليون بقيادة جيش الحملة الفرنسية بعد عودته هو الى**



رسم يمثل فندق شبرد الاول كما كان يبدو فى عام ١٨٥٠

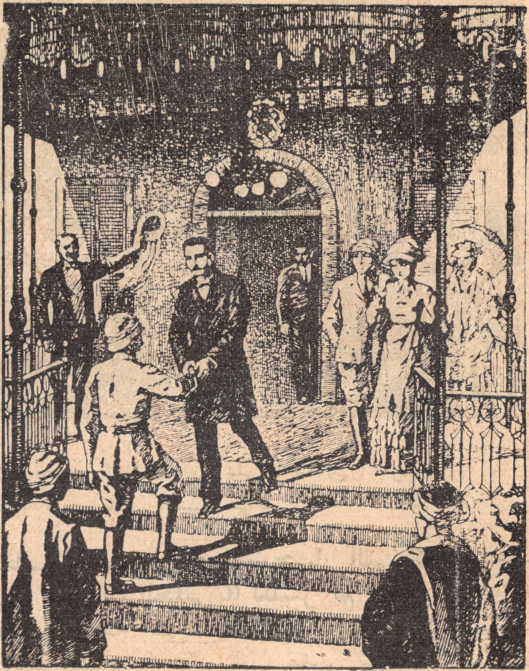


التراجمة يتزاحمون على احدى العربات
امام فندق شبرد فى عام ١٨٦٣

فرنسا .. وفى ظلال شجرة من الاشجار التى كانت تحف بالقصر ، تربص « سليمان الحلبى » لكليبر ثم اغتاله .. وقد هوى كليبر فى نفس البقعة التى اقيمت عليها ـ فيما بعد ـ الغرفة التى اتخذها مستر « بهلر » ـ مدير شركة الفنادق المصرية ـ مكتبا له ..

« العتبة الخضراء » كانت حى الاجانب فى مصر !

• **ولقد** ظل الفندق ملكا لشبرد حتى سنة ١٨٦١ ، حين آل الى مستر « ف . زك » ، فما لبث ورثة هذا الأخير أن أعادوا بناء المكان بأسره فى سنة ١٨٩١ . وجدير بالذكر ان القاهرة الحديثة كانت قد بدأت تظهر فى تلك الايام ، فاتخذت



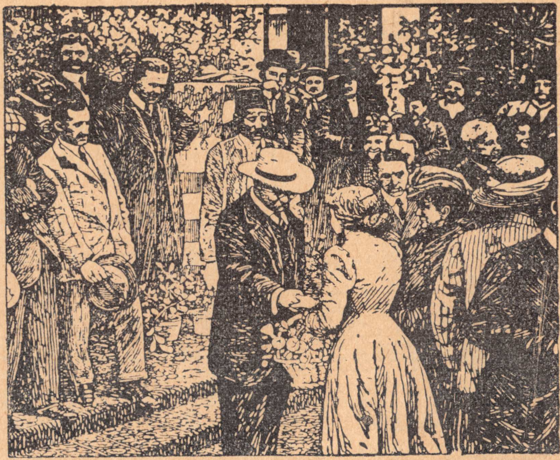
رسم يمثل وصول المكتشف الشهير « ستانلى » – زميل لفنجستون – الى فندق « شبرد » فى عام ١٨٩٠ بعد بعثة اغاثة « امين باشا » الى مجاهل أفريقيا

الجاليات الأجنبية لسكناها حيا تشغله اليوم منطقة (الموسكى) و (ميدان العتبة) . **وكانت الأبواب التى أقيمت عند مدخل هذا الحى تغلق فى كل مساء ، وقد أعلنت الحكومة وقتئذ انها غير مسئولة عن سلامة الأجانب الذين يبقون خارج الحى بعد اغلاق ابوابه** • وكان نزول المسافرين الأجانب قاصر – فى ذلك العهد – على فندق (شبرد) الذى أصبح لهم بمثابة « مرفأ

مريح في البيداء » . وقد وصف شخص – ممن عرفوا طريق الهند البرى في سنة ١٨٥٩ – هذا المرفأ بقوله : « ان الذين سافروا تلك الرحلة في الصيف ، سيذكرون بالعرفان كيف كانوا يبتردون من القيظ بالغوص في الاحواض الحجرية لفندق شبرد » ! .. ولقد كانت صورة شرفة الفندق « التيراس » – التي كانت بارزة من احدى ردهات الطابق الأرضي من الفندق – تمثل ما كان ينعم به المسافرون في سنة ١٨٦٣ من جلسة شاعرية .. **على أن الزائر الأجنبي لم يعد يتعرض للمكاريين والتراجمة والباعة الذين كانوا – في الماضي – يكادون يمزقونه اربا وهم يتنازعونه ، ليستأثر به كل منهم . ولقد ولت الأيام التي كانت فيها الطرق مرصوفة بالبلاط الكبير ، تتأرجح عليها العربات .. كما انقضت أيام الحمير الموبوءة بالبراغيث .. وخلفتها اليوم سيارات « التاكسي » وعربات « الحنطور » المعتني بمظهرها ، والتي تنطلق على طرق اسفلتية .. وصار التراجمة ينتظرون في وقار على الرصيف الممتد أمام الفندق ، ويتقاضون اجورا محددة بتعريفة دقيقة ، ولم يعد مباحا للباعة الجائلين ان يتجاوزوا نطاقا محصورا** . وقد وسع الفندق منذ سنة ١٨٩١ اربع مرات : في سنوات ١٨٩٩ ، و ١٩٠٤ ، و ١٩٠٩ و ١٩٢٧ ، ولن يلبث ان يوسع مرة اخرى بالتأكيد ، لأن عدد الحجاج الى ارض الفراعنة في ازدياد مضطرد !

سجل زائري الفندق من العظماء !

• **وما أقل** سجلات المشروعات التجارية التي تحوي من الطرائف ما يعادل تلك التي وردت في سجلات النزلاء في فندق شبرد . فان عهد هذه السجلات يرجع الى سنة ١٨٤٩ ، وقد ضمت توقيعات عدد لا حصر له من مشاهير الناس – من كل الجنسيات – ومن ابطال الثورة الهندية ، ومكتشفي مجاهل



الرئيس روزفلت ـ الاول ـ يلتقى بافراد الجالية الامريكية فى حديقة فندق شبرد (الثانى) عام ١٩١٠

افريقيا ، والرحالة الذين يجوبون بقاع الارض ــ من امثال ستانلى ، وروزفلت ، والميجر ويسمان ، وتيليكى ، وبيترز ، وعديدين غيرهم ــ ولقد كتب «ستانلى» كتابه المشهور « بعثة اغاثة امين باشا» فى احدى غرف فندق شبرد .. كذلك يشتمل « الكتاب الذهبى » لزائرى الفندق على توقيعات كثير من ابناء الأسرات المالكة فى مختلف دول العالم !

والواقع ان كثيرا ممن ذاعت اسماؤهم ــ سواء بحكم مولدهم، أو لبروزهم فى الأدب والاقتصاد والديبلوماسية ، فضلا عن الساسة والقادة اللامعين ــ قد نزلوا ، فى فترة من الفترات ، فى هذا الفندق الشهير .. وهم لا يزالون يفدون عليه : خليط عجيب ، من امراء ، واصحاب ملايين ، وطلاب لهو ، وطلاب علم .. سواء فى ذلك الامريكيون والأوربيون والأسيويون !

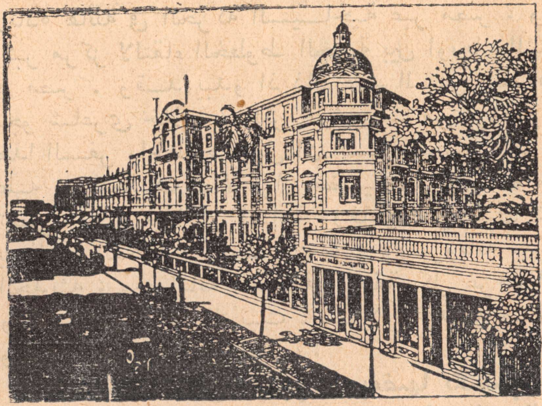
ولقد أدى افتتاح قناة السويس ــ فى سنة ١٨٦٩ ــ الى

زيادة هائلة فى الحركة السياحية عبر مصر ، ومن المؤكد أن اكبر مركز لالتقاء الخطوط الجوية بين اوربا والشرق ، سيقام فى مصر . وقد يبدو اذ ذاك عهد السفر بالقوافل ، محفوفا بجو شاعرى خلاب ، ولكن قليلين منا من يرتضون وعثاء مثل هذا السفر وأخطاره . بل ان السفر الحديث — بكل ما ادخل عليه من كماليات — لا يزال مضنيا .. على انه ما من رحلة تفضى الى مرفأ اكثر فخامة ورفاهية من فندق شبرد الحالى ، بمطابخه الفخمة ، ومخازن مؤنه ومشروباته ، وبكل معداته الحديثة ، وحماماته الخاصة الملحقة بكل غرف النوم تقريبا ، والأجنحة البديعة التأثيث ، مما لا يوجد له مثيل الا فى لندن وباريس ونيويورك فحسب !

ان الفنادق تتألق وتخبو ، وبعضها يكتسب صيتا لبضع سنوات ثم يغدو منسيا ، وبعضها يحظى بشهرة لا تبارى فى



السياح الاجانب امام فندق شبرد فى عام ١٩١٠ (وقد بدوا بأزياء ذلك العهد ، والى جانبهم بعض المتسولين ، وبعض الدواب) .



رسم دقيق لفندق شبرد كما كان يبدو فى عام ١٩٢٨

غلاء الأسعار ، والكآبة ، وسوء الخدمة ! ..ولكن سمعة فندق (شبرد) لا تزداد – على مر الزمن – الا تألقا ، ولا يوحى مستقبله الا بانفساح الفرص لاضافة صفحات جديدة طريفة الى تاريخه الخلاب الذى دام اكثر من مائة سنة حافلة بالأحداث !

....

الشباب .. حالة نفسية !

.. وقد يدهشك ان تقرأ لقائد عسكرى من رجال الحرب والسلاح – هو الجنرال ((ماك آرثر)) ، قائد القوات الامريكية فى الشرق الاقصى ابان الحرب الاخيرة ثم قائد قوات الاحتلال فى اليابان بعد تلك الحرب – هذه الخواطر الفلسفية الرائعة عن .. الشباب ! .. ولكن لاتعجب، فقد كتبها القائد الكبير بعد ان جاوز السبعين، وبعد أن عاش حياة حافلة بالتجارب والعبر .. فتعال نستمتع بثمرة تجاربه .. دون مقابل :

◆ ليس الشباب فترة أو مرحلة زمنية من مراحل الحياة ، وانما هو حالة نفسية ، تشترك فى خلقها الارادة والخيال .. هو انتصار الشجاعة على الخجل ، وانتصار حب المغامرة على حب الراحة !

فالمرء لايشيخ لانه عاش عددا معينا من السنين ، وانما يشيخ اذا هجر مثله الأعلى !.. واذا كانت السنوات تجعد البشرة ، فان التخلى عن المثل الاعلى يجعد الروح !.. وما الهموم ، والشكوك ، والمخاوف ، واليأس ، الا أعداءنا الذين يحنون رؤوسنا بالتدريج نحو الارض ، ويحيلوننا الى تراب قبل ان نموت !

فالشاب هو من ينفعل بالدهشة والفضول ، ويتساءل كالطفل المتعطش للمعرفة : وماذا بعد ذلك ؟.. فهو يتحدى الأحداث ، ويجد متعة فى التلهى بلعبة الحياة . فأنت شاب بقدر ما تنطوى عليه نفسك من ثقة ، وانت كهل بقدر شكوكك ووساوسك .. شاب بقدر ايمانك بنفسك ، وبقدر آمالك ..

وستظل شابا ما ظللت متقبلا مستجيبا لكل ما هو جميل ، طيب ، وعظيم .. مستجيبا لرسالة الطبيعة ، والانسان واللانهاية

.. فاذا عض قلبك التشاؤم يوما ، أو حط على قلبك طائر الشك ، فليرحم الله روحك الشائخة المكتهلة !

الرجل والمرأة .. فى الميزان !

• والآن ، هل تحب ان تقرأ معى أطرف مقارنة ؟ .. انها مقارنة بين الرجل والمرأة – فى المتوسط – جمعها العالم الانجليزى الشهير ((س . ب . هوايتهيد))، وجاء فيها:

المرأة	اقصر من الرجل بحوالى	١١ سنتيمترا
	وأخف منه وزنا بحوالى	٦ر٨ كيلوجرام
	ومخها أخف وزنا بحوالى	١٤٠ جراما
	وهى اكثر منه تذبذبا وتقلبا	٥ مرات
	واوهن منه مصافحة بحوالى	٣٣ فى المائة
	واقوى فى حاسة الشم	١٠ فى المائة
	واسرع شفاء بعد العمليات	٦ فى المائة
	واكثر تأثرا بالدغدغة (الزغزغة)	١٢ فى المائة
	واكثر ميلا للتضرج خجلا	١٧ فى المائة
والرجل	اكثر منها ميلا الى الانتحار	٤ مرات
	واكثر منها انحدارا للجنون	٢٦ مرة
	واكثر تعرضا لالتهاب الزائدة الدودية	مرتين
	واكثر اجراما بما بين	٢و١٥ مرة
	واكثر اصابة بالصمم والبكم بما بين	٧٩و١٠٠ مرة
	واكثر تأثرا بالخمر	٧ مرات

أشهر مائة حدث فى التاريخ !

• وبعد هذه الجولة المنوعة، تعال نقف قليلا عند هذا الكتاب ، الشبيه بـ (الالبوم) الفاخر ، الذى يحمل عنوانا مغريا : ((اشهر مائة حدث فى التاريخ !)) وقد أعده المؤرخان ((صامويل نيزنسون)) و ((وليم ديويت)) بطريقة مبتكرة ،فأفردا لكل حدث – من احداث التاريخ

المائة الكبرى - صفحتين متقابلتين من الكتاب ، حلياهما برسم كبير يعبر عن الحدث موضوع البحث .. ثم رويا قصة ذلك الحدث واهميته بايجاز رائع، بحيث لا يتجاوز السرد نطاق الصفحتين المخصصتين له .

والأحداث التى انتقاها المؤلفان - بارشاد لجنة من المؤرخين والباحثين - تتناول المرحلة من فجر الحضارة البشرية الى يومنا هذا . وقد أوردا فيها اهم الاحداث دلالة وتأثيرا فى تطور الانسانية وتغيير مجرى التاريخ .. والساعات الفاصلة فى المعارك والحروب .. والاكتشافات والمخترعات التى بدلت حياة الانسان .. والأفكار والمبادىء التى أحدثت انقلابات فى الفكر البشرى .. أو بعبارة اخرى ، كل ما احدث تغييرا حاسما فى حياة الانسان السياسية والاقتصادية والذهنية والروحية !

ولما كنت أومن بان لقصص التاريخ سحرا وجاذبية ، الى جانب قيمتها الثقافية غير المنكورة ، فقد رأيت ان انقل اليك فى كل عدد حدثا من تلك الاحداث المائة التى غيرت وجه التاريخ ، مصحوبة بالرسم المعبر الخاص بها، وبنفس الترتيب الزمنى الذى اوردها به المؤلفان . وفيما يلى أول الأحداث التى روى قصتها الكتاب، بنصها ورسمها .. وفى الاعداد القادمة ينتقل بنا الكتاب عبر القرون الماضية ، والقارات الخمس ، فيقفز بنا من بابل، الى مهبط بوذا ، الى اثينا ، فمصرع قيصر ، فظهور الاسلام ، وغزو جنكيز خان للصين .. الى عصر النهضة، واسطول (الارمادا) ، وثورات الشعوب ، ومخترعات الافراد ، وتقدم الطب والعلوم والآداب ..و..و..الخ

• **كان** خروج بنى اسرائيل من مصر - بقيادة نبيهم موسى - وسعيهم الى ارض الميعاد ، من أهم أحداث التاريخ . اذ ان



موسى يخاطب بنى اسرائيل فى سيناء

سلالاتهم المتعاقبة استمدت من هذا الخروج أصلا لتقاليدهم الدينية والقومية .. أما الناحية الدينية ، فتمثلت فى ان موسى تلقى من ربه ـ خلال هذه الرحلة الشاقة المليئة بالمآسى والمحن ـ الألواح العشرة ، التى تمثل اول شريعة سماوية للبشر .. واما الناحية القومية ، فتمثلت فى ان اليهود استندوا الى هجرتهم الى أرض الميعاد ،لكى يستمدوا حجة وذريعة فى استيلائهم على فلسطين فى السنين الأخيرة

• **وقد** ولد موسى ـ على ما ورد فى « التوراة » ـ من ابوين من اللاويين ، كانا من ابناء العشائر الاسرائيلية التى كانت تقيم فى مصر .. فلما أمر فرعون بقتل كل طفل ذكر يولد لأبوين من اليهود ، قدر لموسى ان ينجو من الموت ، اذ وضعته امه فى مركب صغير صنع من اعواد القش ، واسلمته الى النيل ، فظل سابحا مع التيار ، حتى التقطته ابنة فرعون ، فشفعت له لدى ابيها ، وربته فى نعيم البلاط المصرى وابهته

على ان موسى لم يلبث ان اضطر الى الفرار من البلاط الملكى ، اذ قتل مصريا كان يجور على أحد اليهود .. وقضى

أربعين عاما فى حياة وادعة ، كراع فى الصحراء ، على مقربة من البحر الاحمر .. ثم وقع حادث النار التى تراءت له وهو يهيم مع أهله فى الصحراء ، فلما اقترب منها ، ناداه الله واعلن اليه انه اختاره لينقذ قومه .. ومن ثم عاد موسى الى مصر ، حيث استطاع ـ بمعونة أخيه هارون ـ ان يجمع صفوف بنى اسرائيل ، ويستحثهم على مبارحة البلاد

ولكن فرعون اعترض رحيلهم ، فلم يوافق على ان يخلى بينهم وبين مغادرة مصر ، الا بعد ان ابتلى بعشر محن وأمراض أنزلتها النقمة الالهية على البلاد .. ومع ذلك ، فان فرعون لم يلبث ان عدل عن موافقته ، ولم يشأ أن يدع بنى اسرائيل يخرجون من مصر ، ومن ثم تبعهم بجيشه ، فلحق بهم عند ساحل البحر الاحمر .. غير ان الرياح وحركة الجزر فرقت البحر بحيث استطاع بنو اسرائيل ان يعبروه على أقدامهم ، حتى اذا اندفع المصريون خلفهم ، اطبق عليهم الماء فكانوا من المغرقين !

على ان تمكن العشائر من النجاة لم يضع خاتمة لمحنهم ، فقد ظلوا أجيالا يهيمون فى البيداء ، ودبت بينهم الفرقة والخلاف ، ولم يحفظ للشعب المشرد صبره على المحن ـ خلال هذه الفترة ـ سوى الألواح العشرة التى قدمها موسى اليهم

ومات موسى على جبل « بيسجاه » المشرف على وادى نهر الاردن ، قبل ان يعبر قومه الوادى الى ارض الميعاد !

السعادة الزوجية فى ٢٠ سؤالا !

• وبعد هذه الجرعة التاريخية، تعال ننتقل الى جو أخف ، فنقرأ هذا البحث الطريف عن الحب والزواج :

• كيف تعرف انك قد وقعت فى شراك الحب ؟ .. وهل

تراك أحسنت اختيار الحبيب ؟.. وهل أنت مطمئن الى أن هذا الحبيب هو أصلح شريك لحياتك ، وان الحب الذى جمع بينكما كفيل بأن يحقق لكما زواجا ناجحا ؟

لقد استطاع واحد من أكثر خبراء الزواج توفيقا ، ان يضع مقياسا لارشاد أى اثنين مقبلين على الزواج ، الى مدى ما ينتظر لزواجهما من نجاح .. ذلك هو الدكتور « كليفورد ر . آدامز » ، مدير قسم الزواج والارشاد بعيادة كلية التربية النفسية ، التابعة لولاية بنسيلفانيا بأمريكا . وقد استطاع الدكتور آدامز ان يساعد اكثر من ٣٠٠٠ زوجين على أن يتفادوا الأخطاء التى تودى بالحياة الزوجية ، وخرج من دراساته بأن **خير مقومات الزواج الناجح هى : أن تكون معالم شخصيتى الزوجين متشابهة ، وأن يكونا من أسرتين وبيتين متشابهين فى الظروف والمستوى ، وأن تكون لهما معتقدات دينية واحدة ، وأن يميلا الى نفس النوع من الأصدقاء ، والى نفس وسائل الترفيه والتسلية ، وأن يكون كل منهما مهتما بعمل الآخر** .. فالخجول يتزوج من فتاة خجولة ، والجرىء يتزوج من جريئة . أما الزواج الذى يعقد بين زوجين متباينين – فى الدين والأصل والوسط الاجتماعى – فينطوى على نسبة كبيرة من احتمالات الفشل

أما المقياس – الذى وضعه الدكتور آدامز على أسس من البحث والدراسة العلميين – فيتمثل فى الأسئلة التالية :

١ : هل أنتما متعادلان فى روحكما الاجتماعية ؟

٢ : هل أنتما سواء فى جمود الذهن والتشبث بالمثل العليا ، أو فى سعة الفكر والروح العملية ؟

٣ : هل يشعر كل منهما بالرضى عن عمل الآخر ؟

٤ : هل هو (أوهى) قد تجاوز العشرين ، ولم يصل بعد الى الأربعين ، ولم يتزوج ويطلق ؟

٥ : هل هو (أوهى) معروف لدى معارفه بأنه أهل

للاعتماد عليه ، وبأنه لايلجأ الى الأعذار والأكاذيب ؟

٦ : هل ظللتما تتلاقيان مدة عامين أو أكثر ؟

٧ : هل كانت لقاءاتكما خلوا من الشقاق .. نسبيا ؟

٨ : هل لدى كل منكما معتقدات دينية متشابهة ؟

٩ : هل يقر أهل كل منكما زواجكما ؟

١٠ : هل اعتاد الطرف الآخر أن يواظب على الفروض الدينية بانتظام الى نهاية دراسته ؟

١١ : هل الطرف الآخر فى صحة بدنية طيبة ؟

١٢ : هل لدى كل منكما نفس العواطف الحارة ؟

١٣ : هل كان الطرف الآخر بمنأى عن التصادم مع أهله ؟

١٤ : هل كان والدا الطرف الآخر سعيدين في زواجهما؟ وهل اعتادا أن يروضاه على النظام بحزم، ولكن فى غير خشونة؟

١٥ : هل الطرف الآخر خال من الغيرة والشك ؟

١٦ : هل للطرف الآخر طباع هادئة ، وادعة ، حتى اذا كنت أنت من المتهورين السريعى الانفعال ؟

١٧ : هل لكل منكما آراء سليمة ازاء الجنس ؟

١٨ : هل الطرف الآخر معتدل ، لايسرف فى الشراب ، ولا يفرط فى النزوات ؟

١٩ : هل كل منكما قريب جدا من أن يكون وسطا بين الحياء والتهور ؟

٢٠ : هل كل منكما راغب فى انجاب الأولاد ؟

اذا أجاب كل منكما ب « نعم » عن ١٦ — أو اكثر — من هذه الأسئلة ، كان غرامكما قائما على دعائم متينة . واذا اجبتما معا ب «نعم» عن ١٧ سؤالا أو اكثر، وكانت اجابتكما ب «نعم» مشتركة فى ١٥ منها ، فان زواجكما من الممكن ان ينجح .

....

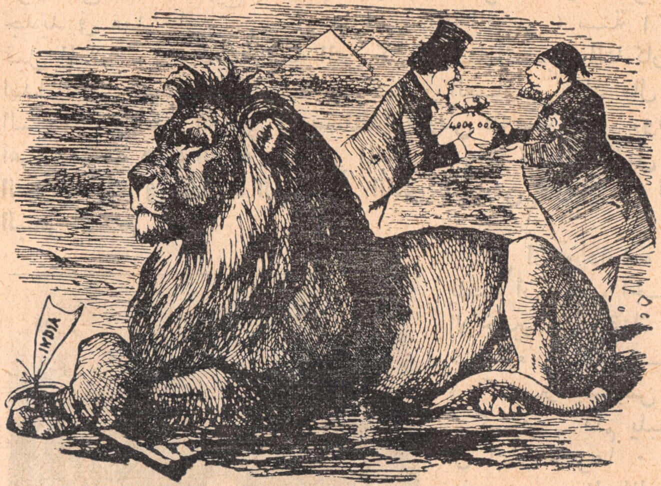
قناة السويس .. عمرها ٤٠٠٠ سنة !

احتفلت مصر منذ ايام بانتصارها فى اضخم صراع دولى نشب بينها وبين دول الغرب على اثر تأميمها لقناة السويس منذ عام كامل . ولهذه المناسبة قرأت لك هذا الشهر كتابا بعنوان « قنـاة السويس » للمؤرخ « هيو شونفيلد » ، انقل اليك منه فيما يلى أهم ما أورده من معلومات عن قنوات السويس السابقة للقناة الحالية ! :

• **كان** الوصل بين البحرين الابيض المتوسط والاحمر من أقدم المشروعات التى راودت فكر الانسان ، حتى ليرجع التفكير فيه الى القرن العشرين قبل الميلاد .. فقد كانت الانظار ترنو دائما ــ منذ القدم ــ الى خليج السويس الضيق ، الذى يصل بين آسيا وأفريقيا ، والى ذلك اللسان الممتد من البحر الأحمر نحو الغرب ، والذى ينحرف بميـل يقربه من البحر الأبيض المتوسط ..

ولم يكن ثمة عجب فى ان تربط العقول الذكية ــ التى عاشت فى مصر منذ أربعة آلاف عام ــ بين هذه الظروف ، وان تفكر فى ايجاد مصب آخر للنيل على البحر الاحمر ، وفى الربط بين هذا البحر والبحر الأبيض المتوسط ، خلال فرع الدلتا المسمى « البيلوسى » .. على ان مصر لم تكن تبغى من وراء هذا الربط تنميـة التجارة مع الغرب ، اذ لم تـكن الدولتان اليونانيـة والرومانية قد قامتـا .. وانما كان أهم ما يشغلها ان تخلق ممرا بين البحر الاحمر والمدن الداخلية القائمة على النيـل ، لتيسير التجارة مع بلاد (البنط) ــ الصومال ــ ومع الأراضى المحيطة بالخليج الفارسى

ويروى التاريخ ان «سيزوستريس» ــ أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة ــ هو أول من شرع فى تنفيذ هذه الفكرة الجريئة ، وعرفت القناة التى انشئت خلال الألف عام ــ التى تلت عهده ــ



رسم ظهر على غلاف الكتاب يمثل خديو مصر يبيع القناة ويقبض الثمن، بينما وضع الاسد البريطانى يده على مفتاح الطريق الى الهند !

باسم «قناة الفراعنة» ، وكانت تبدأ من فرع الدلتا البيلوسى ، متجهة نحو الشرق .. ثم تنحرف جنوبا حتى تصل الى البحر الاحمر خلال (البحيرات المرة)

على ان التقلبات السياسية لم تلبث ان ادت الى اهمال صيانة هذه القناة ، قبيل بداية القرن السابع ـ قبل الميلاد ـ فكادت القناة تردم تماما . ولكن الملك (نيخو) قرر فى أوائل ذلك القرن ان يعيد حفرها ، فاستخدم فى ذلك مائة وعشرين ألفا من العبيد ، ولكنه لم يلبث ان انصرف عن المشروع ، اذ أنذره عراف بأنه انما كان يمهد طريقا للبرابرة الغزاة ! ـ (وقيل ان النبوءة كانت تشير الى الفرس الذين غزوا مصر قبل انقضاء

قرن على ذلك التاريخ) ـ ثم قدر لقناة الفراعنة ان تحفر من جديد فى عهد داريوس ـ أو دارا ـ ملك الفرس ، سنة ٥٢١ قبل الميلاد .. وكانت اللغة التى كتب بها السجل التذكارى لهذا العمل تنضح بغطرسة الديكتاتور الفارسى ، اذ قال فى السجل : **((اننى فارسى ، وبسلطان فارس هزمت مصر .وقد أمرت بحفر هذه القناة من النهر المدعو (بيرافا) ـ اى النيل ـ الذى يجرى فى مصر ، الى البحر الذى يأتى من فارس)) ، أى البحر الأحمر**

على أن « دارا » لم يلبث أن أتلف الجزء الأخير من القناة . ثم جاء خليفته « اكسير كسيس » ـ كسرى ـ فلم يلبث أن أعاد حفرها .. وفى عهد البطالسة أصلحت واجرى تعديل فى خط سيرها ، فأصبحت تنتهى عند (ارسينو) ـ وهى بقعة قريبة من السويس الحالية ـ وأقيم عليها «هويس» بأبواب حديدية مزدوجة ، خشية أن يفيض البحر الأحمر خلالها فيغرق الاراضى وقد فكر فيلاديلفوس ـ أحد ملوك



النصب الذى اقامه « دارا » ملك الفرس لمناسبة شق القناة القديمة

البطالسة — في ان يشق قناة مستقيمة خلال خليج السويس ، وبذلك يصل بين البحرين مباشرة ، **ولكنه عدل عن مشروعه ، اعتقادا بأن مستوى البحر الاحمر أعلى من مستوى البحر الابيض المتوسط ، ومن ثم فقد تغرق القناة البلاد ! .. وقيل ان اليونانيين هم الذين أوحوا اليه بذلك ليثنوه عن المشروع ، غيرة من ان تجنى مصر منافعه التجارية !**

وفى عهد الاحتلال الرومانى ، امر الامبراطور تراجان (سنة ٩٨ قبل الميلاد) بتطهير قناة الفراعنة ، وربطها بالمجرى الرئيسى للنيل عند (بابيلون) — بالقرب من القاهرة — واطلق عليها اسم (نهر تراجان) .. على انها لم تلبث ان أصبحت غير صالحة للملاحة .. حتى اذا فتح العرب مصر ، أعاد عمرو بن العاص — بأمر من عمر بن الخطاب — شق القناة ، فى شتاء سنة ٦٤١ — ٦٤٢ ميلادية ، واطلق عليها اسم « قناة امير المؤمنين » .. ولكن الخليفة العباسى « أبا جعفر المنصور » أمر بسدها فى سنة ٧٧٦ ، كنوع من الاستحكامات التى رأى اقامتها ضد الثورة التى شبت فى مكة والمدينة .. كذلك فكر عمرو بن العاص — اثناء حكمه لمصر — فى ان يبعث الى الحياة مشروع شق قناة من بحيرة التمساح الى البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه عدل عنه فلم يحققه !

وظلت القناة بعد ذلك فكرة تراود الغربيين — المهتمين بالتجارة مع الشرق — كما تراود المصريين ، بين آن وآخر ، دون ان يكتب لها التحقق ، اما لعوامل سياسية ، واما لدسائس الدول الأجنبية المتنافسة ، واما لخوف مصر من ان تكون منفذا يتسرب خلاله النفوذ الأجنبى .. وكانت أشد الدول تحمسا لشق قناة بين البحرين هى : البندقية ، وانجلترا ، والبرتغال ، وفرنسا ، المتنافسة على أسواق الهند .. ولكن هذا التنافس كان يدفع كلا منها لأن تكيد للأخرى وتعرقل مساعيها !

وعندما اشتد اهتمام انجلترا بمصر — بوصفها اهم طريق لها الى الهند — عقب استقلال اليونان وتحررها من الحكم العثمانى فى سنة ١٨٢٩ ، كتب « نيقولا الأول » قيصر روسيا الى مسيو بارانت ، سفير فرنسا فى بلاطه ، فى فبراير سنة ١٨٣٩ ينذره بأن **« الانجليز يضعون أعينهم على مصر . فان هذه البلاد لازمة لهم ، لانها خط المواصلات الجديد الذى يبغون فتحه بينهم وبين الهند . انهم يثبتون أقدامهم فى البحر الأحمر**

والخليج الفارسى .. ولن تلبثوا ان تقعوا معهم فى متاعب بشأن مصر » !

وبالفعل ، نشطت فرنسا ـ مستغلة المكانة التى أحرزها ابناؤها لدى محمد على ـ وظلت تغالب العقبات فى دأب ، حتى استطاع الأفاق الداهية « دليسبس » أن يقنع الخديو سعيد ، وان يظفر بامتياز حفر القناة الحالية .. التى استردتها مصر الى احضانها فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ .

سلامه موسى يقول عن «اعترافات جان جاك روســو» :

« .. واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى كان يجب ان تتــرجم الى لغتنــا قبل مائة او مائة وخمسين سنة . فلقد تغيرت أوربا بأفكار هذا الأديب . ونستطيع ان نعزو جميع التطـورات التى حدثت فى هذه القارة الي مؤلفاته ، التي يتلخص مغزاها فى كلمات معدودة هى : ان الطبيعة حسنة ، والانسان طيب .. ولكنهما يفسدان بالمجتمع السىء ..
فما أحوجنا فى البلاد العربية الى هذه الخمائر ! »

من مقال بـ « أخبار اليوم » فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٥

عبد الرحمن صدقى يقول عن «اعترافات جان جاك روســو» :

« .. انقضى نيف ومائتان وستون سنة على وفاة « روسو »،وانصرف الادباء وجمهرة القراء عن مطالعة « العقد الاجتماعى » و « اميل » و «هلويز الجديدة»، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن متابعة «اعترافاته» ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، ويجرى عليها ما يجرى على الأزياء، فتبطل هذه وتشيع تلك .. اما نجوى النفس البشرية فهى أبدا هى ، نتعرف فى غرائز رجل الكهوف ما نحســه فى اعمــاقنا . فكيف اذا كان صاحبها مثل صاحب « الاعترافات » أقرب الى عصرنا بثقافته، وان كان اشبه بأهل الفطرة فى صراحته وجرأته ؟ »

من مقال بمجلة «الثقافة» فى ١٤ فبراير ١٩٣٩



دانتي وبياتريس مشهد اللقاء الخالد ، كما صوره الفنان « هنري هوليداى »

الشريدة

قصة مصرية بقلم:

نجيب محفوظ



الغــالب على أحاديث الشبان فى هــذه الأيام أن تتجه نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هــذين الموضوعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان من حظى المشاركة فيه محدثا ومنصتا . وقد بدأ الحديث فاترا مبتذلا فلم يستطع أن يجذب الا بعض انتباهى ، حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات على لسانه الذرب فالقيت اليه بانتباهى كله. لأن حديثه كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعرى استبداد المـال بقلب اليهودى الشحيح .. واليك ما قصه صاحبى ، قال :

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة ، ولـكنه قـد يخلو من المرأة المؤثرة التى تترك وراءها شاهدا عميقا لاينال منه طمس السنين ، كالوشم فى اليـد أو الصدر ! .. وقـد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن الا أثرا ذاهبا من اللذة أو الألم ، أو أطيافا غارقة فى الظلام والنسيان ، الا امرأة ، بدت فى فترة من حياتى كالكوكب الدرى ينير أبدا ويضىء ما حوله ، فلا أنا أنسـاها ، ولا يغمر النسيان حيـاتى التى غمرتها بروحهـا الرقيق .. لمـاذا .. ألأنها كانت أجمـل من عرفت ؟ .. أو أحبهن الى قلبى ؟ .. لا أعتقد هـذا ، ولكن ربما لأنهـا كانت أتعسهن جميعا ، ولأن تعاستها هذه كانت السبب الخفى فى سعـادتى بها زمنا طيبا لن يعود ابدا !

ويرجع عهد معرفتى بها الى يوم من أيام عام ١٩٢٠ ، وكنت آنئذ طالبا فى السنة الأولى بمدرسة الزراعة العليا . استيقظت ذلك اليوم فى الصباح المبكر كعادتى فجـاءتنى والدتى وقالت لى : « حسونة .. أرى أن أخبرك أن ضيفـة نزلت ببيتنا ، وأنها ربما أقامت بيننا الى أجل غير مسمى .. »

فنظرت اليها بغرابة وقلت لها : « من هى .. ؟ »

ــ زينب هانم ، زوج اليوزباشى « محمد راضى » جارنا .

فاستولت على الدهشة وقلت : « لكنها مازالت عروسا

فى شهر العسل ! .. أليس كذلك ..؟ »

— هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تعسة الحظ لأنها اضطرت الى هجر بيتها والالتجاء الى فى الصباح المبكر ، وزوجها ولاشك رجل غليظ فظ لا تسهل معاشرته ، والا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم أن لا أقارب لها فى القاهرة !

وكانت والدتى شديدة التأثر فقلت : « مسكينة ... »

فقالت بانفعال : « كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وانى أرجو أن تعيش بيننا سعيدة .. »

ثم أردفت بلهجة ذات مغزى : « وأن تكون لها يا حسونة أخا كريما .. »

وبادرت قائلا : « طبعا .. طبعا .. يا أماه . »

وذهبت الى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتى الأخيرة واللهجة التى قالتها بها ، وأحسست بمزيج من الخجل والغضب : **ترى هل تشفق والدتى من سلوكى على ضيفتنا ؟ ثم خطر لى أن أتساءل : « هل هى جميلة الى حد تبرير مخاوف والدتى ؟ » .. حامت أفكارى حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة الى الجيزة . والحق ان كلمة والدتى البريئة أوجدت فى نفسى منذ البداية الاستعداد الذى كانت تشفق منه أيما اشفاق !**

وكان جو بيتنا غاية فى الهدوء ، فوالدى كان حينذاك قاضيا بمحكمة طنطا الأهلية ، وكان يقيم نصف الأسبوع فى القاهرة ونصفه الثانى فى محل عمله . وكان أخى « على » فى المدرسة الحربية ، وأخى « عادل » فى بعثة كلية الطب بالنمسا . وفى ذلك الجو المغمور بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم ، العروس التعسة .. وقد خيل الى وانا ألقى عليها النظرة الأولى أنى أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضة ممتلئة بادية الأنوثة ، ولكنى قرأت فى عينيها العسليتين نظرة

براءة وسذاجة ،بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذى لا تعرفه الطفولة الحقة ..

وكان الشباب فى ذلك العهد غيرهم الآن ، كانوا أعظم استقامة وأدنى الى العفة والطهر ، وأرعى عهدا للتقاليد ، وكانت المرأة المصونة تبدو دائما وكأنها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة . وكان الحب بعيدا نسبيا عن التهتك والابتذال اللذين صرعاه أخيرا وأورداه الاباحية والجنون ، فكانت العواطف تزدهر فى القلب وتنبت الآمال والأمانى ، وتنصهر فى العقل وتخلق الاخيلة والاحلام ، وتكتسى بحلى نادرة من صنع الأوهام والأطياف ..

فكان يقنعنى من زينب نظرة اختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البض ، لتكون زادى فى النهار والليل ، وفى اليقظة والنوم .. وأصبحت وأمسيت فى عالم اثيرى جميل بث فى وجدانى حياة ناضرة كالحياة التى ينشرها الربيع فى الحقول والبساتين . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك ، فجرى الحديث بيننا مرات ، ولعبنا الورق مرة والنرد اخرى .. **وغالبتنى عواطفى فوسوست الى نفسى أنأتشجع ، وتساءلت بخبث لماذا لا أجرب حظى ؟ لماذا لا ألمس أناملها فى اثناء اللعب مثلا ، أو أهدى اليها رواية «ماجدولين» فتكون فاتحة حديث لذيذ لا يعلم ختامه الا الله ؟ .. ولكنى لقيت من التردد الشىء الكثير ، ولم تسعفنى الجرأة التى تعلمتها فيما بعد ، وضاع الوقت هباء ..** حتى رجعت يوما الى البيت،فوجدت والدتى وحدها ــ وكنت تعودت ان أراها الى جانبها ــ فأحسست بوحشة وضيق ، وكتمت رغبة تلح علىبالسؤال ــ لأن تلوث نفسى أفقدنى صراحة الأبرياء ، وظننت السؤال فاضحى ! ــ ولم تدعنى والدتى فريسة العذاب فقالت لى :

ــ شكرا لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر لزوجه وعاد بها لأنه نقل الىاسيوط ،وقد كلفتنى انأهدىاليكتحياتها ..

وأحسست فى الحال احساس الطالب الذى يمنى بالسقوط فى الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة اللائقة به!. وضاق صدرى ذلك اليوم بالبحث ففررت الى الخارج لأخلو الى نفسى بعيدا عن عينى والدتى . على ان الصبا دائما قادر على جرف الأحزان والهموم ، فاستطعت أن أبرأ فى مدة وجيزة ونسيت فى غمرة الحياة والآمال تلك الحسرة التى عصرت قلبى أياما فكانت مثل « الزكام » الذى يفقد الانسان طعم الحياة لكنه لا يلبث ان يزول سريعا فكأنه لم يكن !

* * *

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم ، ووظفت فى وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ . ثم انتقلت الى تفتيش الاسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات . وفى الأيام الأولى لهبوطى الى الأسكندرية آثرت ان أنزل بفندق لأستريح من وعثاء السفر وأبحث فى هدوء عن مسكن مناسب . ووقع اختيارى على فندق (ريش) لحسن موقعه من البحر لأننا كنا فى سبتمبر وهو من الشهور المحبوبة فى الاسكندرية يطيب فيه الجو ويهدأ البحر ويصفو ، فحملت حقيبتى اليه ونزلت فى حجرة من حجرات الطابق الثانى . وأذكر أنه لم يكد يتركنى الخادم ويغلق وراءه الباب حتى سمعت طرقا فدلفت الى الباب وفتحته ، ورأيت لدهشتى صديقنا الدكتور أحمد شلبى واستقبلته بشوق وأجلسته الى جانبى، وكان يقول لى : « أحقا هو أنت ؟ » .. ثم أردف : « كنت تاركا باب حجرتى مفتوحا فلمحتك وانت تتبع الخادم وعرفتك فى الحال .. »

ـ هذه فرصة سعيدة ..

ـ يا حظك !

ـ أى حظ تعنى ؟.. أنت تعلم أن موظفى الزراعة لا حظ

لهم يحسدون عليه .

فقال ضاحكا : « أنا لا أتكلم عن الكادر .. ولكن عن فوزك بهذه الحجرة .. فيا حظك ! »

– وما الداعى الى هذا الحسد ؟ .. هى حجرة دون حجرات الصف المقابل التى تطل نوافذها على البحر ..

– هذا حق ، ولكن شرفتها تمس شرفة الحجرة رقم ٢٤ التى الى يمينك ، وحسبك هذا !

– وما شأن الحجرة رقم ٢٤ ؟

فقال وهو يتنهد : **« تقيم بها امرأة حسناء، وحيدة!»**

– وحيدة ؟!

– نعم .. والى هذا يعود السبب فى أن حجرات هذا الطابق مأهولة كلها !

– لعلها ممثلة أو راقصة ؟

– هو ما يظنه الرقم ٢٧ .

فقلت مستفهما : « الرقم ٢٧ ..؟ »

– أعنى زميلى الدكتور الصواف المقيم فى الحجرة رقم ٢٧، ولكنى لم أوافقه على ظنه، لأنى خبير بالصالات والمراقص جميعا . والأعجب من هذا انها تبدو محترمة ، ولا ينقصها الا زوج لتكون من المصونات حقا .

فابتسمت وقلت : « عند الامتحان يكرم المرء او يهان ! »

– أوه .. كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة !

– ألم يفز أى رقم منها بطائل ؟

– فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر !

وجالسنى الصديق ربع ساعة ، تحدث فيها ما شاء له الحديث ، ثم ودعنى وانصرف الى حجرته . وكنت تعبا منهوك القوى فنمت ساعة نوما عميقا واستيقظت عند العصر ، وفتحت شرفتى وجلست فيها استروح هواء البحر المنعش . ولاحت منى نظرة الى الشرفة التى الى يمينى ،



فتذكرت ما قال صديقى الدكتور، وأدمنت النظر اليها باهتمام وشغف، ولكنى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صرير بابها وهو يفتح، ونظرت امامى، ولحظت بروز شخص، وخيل الى انه امرأة، وتأكد ظنى عندما عطست، وحافظت على جمودى وتظاهرت بعدم الاكتراث . . وغالبا ما يفيد البرود، وهو ان لم يفد ففيه عزاء عن الخيبة !

ولكنى لم أثبت طويلا، ونازعنى الشغف الى النظر فألقيت ببصرى الى جارتى . ورأيت امرأة أول ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة، سرعان ما تحول الى يقين بأنى رأيتها من قبل ! وأنا اتمتع بذاكرة لا تخيب قط فى حفظ الصور، فلم ألبث أن ذكرت . . ذكرت جارتنا القديمة . . التى عاشت معى فى بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لانضاج وجدانى . . وتملكتنى الدهشة والاهتمام .

ولاحت منها نظرة الى فالتقت عينانا، وتوقعت بقلب خافق أن أطالع فى وجهها آية التذكر، وتحفزت للسلام، ولكن خاب رجائى، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها ! . . ولم تلبث أن ولتنى ظهرها وعادت من حيث أتت . وا أسفاه، لقد نسيتنى بغير شك . وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة، وهى ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها، ولكن ما لها تعيش وحدها فى هذا الفندق ؟ . . وما الذى يحملها على هذه الوحدة الغريبة ؟ . . وأين زوجها يا ترى ؟

وطال تفكيرى فى شأنها حتى قمت لارتداء ثيابى وغادرت

حجرتى ، وشاءت المصادفات ان يفتح باب حجرتها على أثر خروجي مباشرة ، فتباطأت فى خطاى حتى حاذتنى وهبطنا الأدراج معا ، ووجدت فى نفسى رغبة شديدة فى محادثتها - ولم أكن احجم فى مثل ذاك الموقف - فقلت لها بهدوء غريب :

- سعيدة يا هانم .. لعلك تذكريننى ؟

فحدجتنى بنظرة انكار - ولعلها ظنت أنى أتذرع بالحيلة لاستدراجها الى محادثتى - وأسرعت الخطا ، فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها : « أهكذا تنسين جيرانك بسرعة ؟ .. ألا تذكرين حرم حسن بك همام ، القاضى؟ »

فالقت على نظرة غريبة ، ولاحت فى عينيها الأحلام .. وسمعتها تتمتم : « عدالات هانم ؟ .. شارع الزقازيق ؟ » فقلت بفرح : « نعم ، هذه والدتى .. وهذا شارعنا » .. فهشت لى ، وسارت الى جانبى وهى تقول : « أأنت ابنها ؟ .. تذكرت .. كيف حال عدالات هانم ؟ » .. فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها :

- والدتى بخير .. كيف حالك أنت يا هانم ؟

- عال ، ولكن أين عدالات هانم ؟ ..هل أنت هنا وحدك؟

- نعم،الأسرة فى رأس البر لأن والدى يحبها ويفضلها على الاسكندرية ، وأنا هنا بحكم عملى .

- نسيت اسمك ..

- حسونة ..

وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى من سؤالها عنه ، فمشيت الى جانبها صامتا . وكان وجدانى فى يقظة قوية ، وأصارحكم القول بأنى من الذين لا يملكون عواطفهم اذا خلوا الى امرأة أيا كان جمالها ، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف التخصص ، وقد كنت قبل نحو عشرين عاما ذا استعداد للحب ، ولكنى فقدت بمرور الزمن

واطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيرا من الحيوانات الراقية . وكنت فى ذلك الوقت خاطبا، وكنت اخترت خطيبتى من بين عشرات الفتيات ، ولكن ذلك لم يمنع قلبى ـ ذلك اليوم ـ من التعلق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع ، قلت لها :

ـ أأنت وحدك هنا ؟

فقالت بلا اكتراث : « نعم ! »

ـ وزوجك ؟

ـ فى السلوم

ـ ولماذا تعيشين وحدك ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت : « لا ينقصك الا أن تفتح محضرا للتحقيق وتطالبنى بالشهود ! »

فخجلت من فضولى ، وضحكت أدارى خجلى ، ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت:«ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس ؟ »

فهزت رأسها وقالت بعناد ظريف : « كلا ،أنا افضل المشى لأنى أريد أن انحف . »

فنظرت الى جسمها البض الممتلىء نظرة معذب ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبغى ان تفلت منى ، فقلت باعجاب : « وما جدوى هذا التعب ؟.. ان جسمك كامل الفتنة » .

فألقت على نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهى تشير الى جسمها : « هذه موضة قديمة ! »

فقلت بحماس : « هذا جميل وكفى .. وما عدا ذلك فلا وزن له عندى . »

ـ وعند الناس ؟

ـ نعم وعند الناس ..

كدت أنسى هذا ، اذ خيل الى الوهم الساحر أنى صاحب

الشأن الأوحد ! .. على أنهـا قالت ما قالت وهى تبسم لى باغراء. فاستخفنى الوهم مرة أخرى واشتد بى الطمع فقلت: « أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطـويلة ، وكأن التى أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بغتة فى بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة اعوام،وغربت بغتة كذلك فتركتنى احلم بها أياما وشهورا ؟ »

فنظرت الى بخبث وقالت : « يالك من ماكر ! »

فقلت ضـاحكا : « ما وجـه الغرابة فى ذلك ؟ .. من يرى هذا الحسن ولا يتمناه ؟ »

ـ الظاهر انى ساجد من الواجب أن أفارقك ، لأنجو من أمانيك !

ـ حاشا أن تفعلى .. بل حاشاى أن أتركك تفعلين .ان فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشرير الكفر بها !

ـ انك تحدثنى كما لو كنا عاشقين افترقا ثم تلاقيا ! ؟

ـ هذا شعورى بحق ..

ـ هو أدنى الى الوهم

ـ أما من ناحيتى فلا ..

ـ واما من ناحيتى فنعم !

ولـكنها قالت ذلك بدلال ورقـة ، وهى تبسم ابتسـامة عذبة تسيل اغراء ، ولم أدهش لما أبدت من استسلام لأن حالتها فى الواقع كانت تدعو الى الريبة .. وتذكرت ما قال صديقى الدكتور شلبى فقلت : « انى اعجب لماذا تقيمـين وحدك فى هذا الفندق ؟ »

ـ أراك تعود الى التحقيق !

ـ كـلا لا داعى للتحقيق .. ولكنى علمت أن المقيمـين بالطابق الثانى يضايقونك ..

ـ أبدا ، لعلهم يضايقونك أنت !

فتنهدت ، وتعمدت أن أسمعها تنهدى ، ثم قلت: « فليكن .. ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق ريش ؟ »

ـ نترك ..؟

ـ نعم .. أنا أعنى ما أقول ، وأعرف فندقا هادئا فى لوران ، فما رأيك ؟

ولم تجبنى ، ولازمت الصمت حينا ، وبدا على وجهها الاهتمام والتفكير ، فخفق قلبى وساورنى الخوف والقلق ، ولكنى أحسست فجأة بذراعها تلتف بذراعى ، وسرنا مشتبكين كالعشاق أو الأزواج .. فأثلج صدرى وغمرنى الفرح والفوز ، وقنعت بذلك جوابا !

وفى مساء ذلك اليوم افتتحنا معا مأدبة الحب ، فعدنا الى (ريش) وأخذنا حقائبنا ورحلنا الى لوران ونزلنا فى فندق (اكس لاشابل) ، وهو فندق هادىء منعزل يقوم على شاطىء البحر كزاهد عازف يولى ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام .

وعشت أياما اذكرها دائما كما يذكر السقيم عهد الصحة والعافية !.. كان الحب فيها الحاكم القاهر المستبد الطاغى الذى لا يترك لشىء مكانا من عقولنا أو نفوسنا ! وكنت أعلم أنها أيام وان طالت قصار ، وان صفت فالى انتهاء سريع ، فأقبلت عليها بنهم وجشع أملأ من حسنها قلبى وحواسى ، كيلا أدع زيادة لمستزيد ، غير مؤجل متعة الى غد أو مبق على لذة الى حين ، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام .. وكانت شريكتى سعيدة راضية ، يسكرها الحب وتستخفها آيات العطف ، فتستزيد منها كما يستزيد الثمل من الطرب !

وتبين لى بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة ، فكنت لا أفكر الا فى حاضرى ، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة فى رشفة واحدة !.. أما هى فكانت تنظر الى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل ، وترغب رغبة صادقة فى أن تطمئن الى دوام

السعادة والحب . وقد عجبت لذلك وعلمت أنى لم أفهم بعد تلك المرأة ، وقد ظننتها حينا امرأة مستهترة متقلبة الأهواء، تجوب البلاد بعيدا عن زوجها طلبا للحب الآثم وانتهابا للذات .. ولكنى وجدتها هادئة الطبع ، عظيمة المودة ، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التى تورد أصحابها مهالك الفتن ..

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص ، فلم يكدر صفوى مكدر ، الا أن افراطى الشديد ردنى الى شىء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكرى أن يتناول أمورا غير الحب : **فكرت فى أنى أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية ، ولم يكن سبق لى أن اقترفت هذا الاثم المنكر ، فوخزتنى شكة الألم وأحسست بخوف غامض . وزاد من ألمى انى كنت على عتبة الحياة الزوجية ، وساءلت نفسى فى رعب ألا يجوز أن يقتص الله منى ويصيبنى يوما فى المقتل الذى طعنت فيه الآخرين ؟**

وهنا قاطعه احد المستمعين قائلا : « وهل صدقت مخاوفك فيما بعد ؟ »

وضحك البعض ، ونظر محدثنا الى مقاطعه شزرا ، ثم استأنف حديثه قائلا : « ثم فكرت فى أمر آخر لايقل عن سابقه خطورة . فكرت فى أمر الزوج الغريب الذى يترك لزوجته الحبل على الغارب. ما الذى عساه يفرق بينهما ؟.. وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة ؟.. والا يمكن أن يظهر بغتة فى أفقنا الهادىء فتكون الطامة التى لاتدفع ؟ »

وكانت هذه الأفكار تساورنى خارج الفندق بعيدا عن ظلها الخفيف ، ولكنى وجدت نفسى مسوقا الى مفاتحتها بهذا الحديث .. وقد فعلت ، فسألتها يوما : « أما من أخبار عن زوجك ؟ »

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت : « دع هذا الحديث!» فاضطررت ساعتئذ الى السكوت ، وفى نيتى ان أعيد

الكرة مهما كلفنى ذلك . وكانت هى تتحامى هذا الحديث وتتهرب منه ، ولكنى قلت لها يوما باخلاص وحزم : « ينبغى أن تعلمى أنه ليس الفضول الذى يدفعنى الى معاودة السؤال، ولكنه الاهتمام بشخص أعزه وأحبه وأرجو دائما أن يفتح لى صدره وقلبه .. »

كم فرحت لكلامى هذا .. لقد التصقت بى بوجد وحنان وتنهدت بسعادة وقالت : « يا للسعادة .. طالما ضرعت الى الله أن يهبنى قلبا حنونا محبا .. »

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدى وقلت : **« اذا هيا وصارحينى بكل شىء »**

ـ ولكنه حديث مؤلم كريه .

فقلت : **« أنا لا أدرى شيئا ، لأنك لم تريدى أن تطلعينى على شىء ، ولكنى كنت أرجح دائما أن حياتك الزوجية غير سليمة . ومهما يكن من أمر فينبغى أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا ! »**

فهزت منكبيها باستهانة وقالت : « انه لايعرف مقرى على وجه التحقيق .. »

ـ ما اعجب هذا !.. استطيع أن أفهم أنكما غير متحابين ، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو ان تبقيا زوجين بعد ذلك !

ـ انه لايطلقنى لأنه لايستطيع الاستغناء عن مالى.. وسوى ذلك فلم يكن زوجا قط ، وهو لا يطيق أن يكون زوجا فى يوم من الأيام .. على انى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق !

فحدقت فى وجهها دهشا وقلت : « هذا أعجب ! »

ـ لا تعجب لشىء . ألا ترى أنى هكذا مالكة لحريتى ؟ . . ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب الى حيث أشاء . ولو كان لى من يهمه أمرى ويحنو على بصدق لتغير مصيرى من بادىء الأمر ، ولكنى وحيدة ، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة. أنت لاتدرى ما الوحدة .. أما أنا فقد تجرعت مذاقها المر

فوجمت صامتا وغلبنى التأثر الشديد ، ورأيت وجهها الجميل محتقنا كقطعة من الجمر . ولمحت دمعة حبيسة فى عينيها فقلت : « انك جميلة وغنية ، فماذا كان يريد هذا الأحمق ؟ »

ـ انه وحش ضار وقاس جحود ، لم أستطع أن أعاشره كزوجة الا أياما معدودات ثم اضطرنى الى حياة التشرد والهيمان .. ولو وهبنى الله طفلا لاستعنت به على الصبر والرضا ولكنى حرمت حتى من هذا العزاء .

وكانت تتكلم بتأثر شديد فخيل الى أنى سأتبعها الى البكاء، وثرت فى نفسى على الحظ التعس الذى ضيق عليها الخناق .. وخطرت لى فكرة ، فقلت لها : « ألم يكن فى وسعك اصلاح ما أفسد الحظ ؟ »

فضحكت ضحكة مريرة وقالت : « الحظ التعس لايصلحه شىء ، وأنا ما قصرت قط .. وأصارحك القول بأنى كنت أحبه، وما وافقت على الزواج منه الا لأنى أحببته يوما ، ولكنه مضى بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضى الليل خارج البيت ولا يعود الا قبيل الفجر !.. وكنت اذا انبريت لاصلاحه ومدافعة الشقاء الذى يهددنى به سخر منى وهزأ بمحاولاتى، ولما ضاق بى ترك السخرية والهزء وعمد الى الخشونة والفظاظة ! »

وسكتت عن الحديث دقائق وهى مستسلمة الى الشعور الأليم الذى أحدثته الذكريات، ثم أردفت بصوت أعمق ووجه أشد اكفهرارا : « وأدركنى اليأس منه ، ولما أتم شهرا كاملا فى بيتى الجديد ، وكان ذلك لحادثة همجية ـ لايمكن أن تمحى من ذاكرتى ـ ايأستنى من الخير ودمرت كل فضيلة فى نفسى: ففى ليلة من ليالى شهر العسل كنت مستغرقة فى النوم بعد سهاد حزين ، واذا بهزة عنيفة توقظنى من نومى، فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيته جالسا الى حافة الفراش . وهممت بتعنيفة ، ولكن لسانى لم يتحرك فى

فمى لأنه كان فى حالة سكر شديد، كما تبينت ذلك من نظرته الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التى تنبعث من فمه . **وكان هنالك ما هو أدهى من ذلك ، كانت تقف قريبة منه امرأة غريبة فى مثل حالته من السكر الشديد. كانت تنتظر بلا ريب ان أوسع لها مكانى فى فراش العرس !.. ولم يمهلنى حتى أفيق من فزعى ودهشتى فقال لى بلسانه الثقيل الملتوى : « تفضلى خارجا » . ولم تنتظر صاحبته ، فدنت من الفراش وارتمت الى جانبى ، ولم اتمالك نفسى ففزعت من مكانى الى أرض الغرفة وفقدت رشدى ، فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سبا ولعنا ، ولكنه هز كتفيه استهانة واستلقى الى جانبها !..** فغادرت الحجرة فى حالة جنونية ، وأحسست برغبة لاتقاوم فى هجر البيت ، وكانت ثيابى فى الدولاب داخل الحجرة ، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلفعت به وفتحت الباب ووليت خارجا ، والديوك تصيح معلنة طلوح الفجر ، وهرولت فى الطريق الموحش لا ألوى على شىء .. حتى انتهت قدماى الى البيت الوحيد الذى تعودتا الذهاب اليه .. بيت والدتك .. ولعلك تذكر الأيام القلائل التى قضيتها عندكم.. انى لا أنسى تلك الليلة أبدا .. ولا تزال قائمة فى نفسى بجميع تفاصيلها.. وقد كانت فاصلة فى حياتى بين عهدين .. »

واحترمت فترة الصمت التى تلت ذلك ثم سألتها : «كيف عدت اليه بعد ذلك ؟ »

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت: **« فى تلك الليلة انتهت حياتى الزوجية فى الواقع ، ولكننى كنت بلا مأوى وبلا معين فماذا أصنع ؟.. عرض على اتفاقية فقبلتها ، وهى أن أعطيه من مالى على أن يعطينى حريتى ، وقد كان.. وغدوت حرة أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل ! »**

وهالنى الأمر فقلت : « وهل عشت سعيدة بعد ذلك ؟ »

فتنهدت وقالت : « ليت ذلك كان ممكنا .. ما تمنيت على

الله من شيء مثلما تمنيت ان يسلبني حريتي هذه في لقاء أن أحظى بالسعادة التي أحلم بها ، والعطف الذي أتحرق اليه ، وأنا مستعدة دائما أن أتنازل عن حريتي بائنة لمن يهبني قلبه واخلاصه .. كم تعبت وكم بحثت .. وكم ضقت بحريتي! »

الآن علمت كل شيء .. لقد صرفت هذه المرأة التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبودية السعيدة ، فهل ياترى وفقت الى ما تريد ؟ .. كلا . هي لم توفق ولا ريب ، ولو أنها وفقت الى الحبيب الصادق ما أرتمت بين يدي أنا بهذه السهولة . لقد انصرمت السنوات العشر في خيبة مريرة وخدع أليمة ، وما من شك في أن الكثيرين تلقفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن ، ثم ردوها قهرا بعد شبع الى حريتها البغيضة . وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحيانا ، وتعيي في طلب المستبد الغاصب!

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت الى بطمأنينة واستسلام ، ثم ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها تهمس في أذني قائلة : « وأخيرا .. »

وفهمت مدلول تلك الكلمة ، وعلمت اني ألعب في روايتها البائسة دور الأمل الأخير ، فاما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها واما ان أشفي بها على اليأس القاتل !.. وأحسست بثقل تبعتي ، وران على صدري هم عظيم ، وتساءلت حيران : ترى ما هي أحلامها ؟.. أأن تدوم هذه العشرة ؟ .. وكيف لي بدوامها وانا على قاب قوسين أو ادنى من الزواج؟..ومضى تأثري الشديد لتعاستها يهدأ نوعا ، وأخذت أفكر في نفسي وأنظر الى علاقتي بها بعين متشائمة ، وأتساءل في قسوة وأسف عن طريقة للخلاص !.. وكانت تأتي على أوقات أعجب فيها من أنانيتي واتساءل في اشمئزاز : اذن كيف كان شأن من لم يشعروا نحوها بغير الشهوة والطمع ؟ . . الحق أن عالمنا الانساني عالم شديد القسوة ، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها في الدعوة الى القسوة وتحقيق تنازع البقاء ، فهي

فى الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى باذليه بالضن به!

على ان الذى أزعجنى هو أن زينب فطنت لمشاعرى الخفية من غير أن أصارحها بها ، وبدا لى ذلك فى وجومها وبرودها وقنوطها . ولم أدهش لذلك فانى من الذين لايدرون كيف يخفون ما بنفوسهم ، وتفضحهم أعينهم وايماءاتهم . ولم أكن بيت قط نية مصارحتها بعاطفة ممايعتلج فى صدرى أو بفكرى.

وكنت أتوقع فى خوف واشفاق أن تفاتحنى بما يقوم فى نفسها من الوساوس ، وكان ذلك يضاعف آلامى النفسية ، ورجوت أن تنقشع تلك السحابة من سماء حياتى دون أن تترك وراءها أثرا لحزن أو ألم أو تأنيب ضمير! وانقلبت حياتنا تمثيلا ثقيلا ، وكان كل منا يعلم بما يشعر به صاحبه نحوه ولكنا كنا نتجاهل كل شىء .. لماذا لم تصارحنى بشعورها؟ .. ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة ..؟

وقد عدت ظهر يوم من عملى بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية ، وبحثت عيناى عن آثارها اللطيفة التى تعودت رؤيتها كالفساتين التى كانت تعلقها على المشجب أو الحقيبة التى كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثرا ، وأسرعت الى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابى ، وناديت الخادم وسألته عنها فأخبرنى أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحا



وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنى كنت أتوقع أن تترك لى كلمة ، ولكنى لم أعثر على شىء !

لقد تركتنى دون كلمة .. وانتهى كل شىء !

وجلست صامتا واجما تتنازعنى العواطف ، ولم أشعر براحة للخلاص الذى جاءنى بدون مشقة ، وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة ، ولم أجد رغبة الى الطعام فقمت من فورى أبحث عن مسكن جديد ، لأنه كان يتعذر على أن أبيت ليلتى فى تلك الحجرة المهجورة !

وسكت الراوى لحظة ثم اردف :

ومضت سنوات لم أرها فيها ، ثم رأيتها منذ عهد قريب تساير شابا أنيقا فى ميدان المحطة ، ولكنى لا أدرى ان كانت ماتزال تبحث عن الحب والعطف .. أم انها استسلمت للقنوط !؟



المدينة
الفاضلة
للفارابى
آراء أهل
المدينة الفاضلة
ثانى نظرية للدولة المثالية
فى تاريخ الفكر البشرى
للمعلم الثانى
"أبو النصر الفارابى"

الكتاب العربي الذى أثر فى العقلية السياسية الغربية

◆ قدم لك « كتابى » ـ فى أعداد سابقة ـ ملخصات لشوامخ الكتب التى وضعت فى الحكم والسياسة منذ أقدم العصور . وكان آخر ما قدمه في هذا الصدد كتاب « السياسة » لأرسطو .. وهو اليوم ، يقدم لك ـ لأول مرة ـ نموذجا من الفكر السياسى والفلسفة السياسية لدى العرب ، هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى

وإذا كان العرب قد أطلقوا على « أرسطو » ـ عندما نقلوا الفكر اليونانى الى العربية ـ لقب « المعلم الأول » ، فانهم أطلقوا كذلك على « الفارابى » لقب « المعلم الثانى » تقديرا لمنزلته فى العلم !.. ولقد كان لكتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » أعظم الأثر فى العقلية الانجليزية والفرنسية ابان عصر النهضة ، وتجلى هذا الأثر فى اتجاه الرواد الأول لعلم الاجتماع فى هذين البلدين ، الى تقسيم أنواع الدول والمجتمعات .. وهو ـ الى جانب كونه أول كتاب من نوعه فى الانتاج الفكرى العربي ـ يعتبر ثانى رسالة تعالج فكرة الدولة المثالية ، بعد « جمهورية أفلاطون » ، كما انه ثانى كتاب يتناول نظام السياسة بعد أرسطو

« الله » هو أول الموجودات

◆ **اذا** شئنا ان نبحث فى « المدينة الفاضلة » ، وجب أن نرجع الى المبدأ الذى تفرعت عنه هذه المدينة . فان لكل شيء علة ، والموجودات ترقى مترابطة فى سلم العلة والمعلول ، فالأدنى سببه الأعلى ، وهذا سببه ما هو أعلى منه .. حتى نجد أنفسنا ـ فى النهاية ـ فى حضرة الله .. الموجود الأول !

فمن هو الله ؟.. وكيف نشأ عنه العالم ؟

ان الله كائن كامل واحد ، لاينقسم الى اجزاء . واذا كان الله متصفا بصفات كثيرة ، فليست هذه الصفات من قبيل

الانقسام فى الذات ، وانما هى عين الذات .. فالله واحد ، كامل .. وهو عقل محض .. **هو الفكر الأسمى ، مجردا عن المادة .. الفكر خالصا عندما يرتفع عن قيود المادة ويكتفى بذاته ، فهو لذلك الحكيم الأسمى .. وكيف لايكون حكيما وهو فى أعلى مراتب الفكر ، وعلمه اسمى مراتب العلم ؟**

وقد نجد هناك من يسأل : « لماذا لانرى الله ؟ »

والجواب سهل : فان الله فى اسمى مراتب الكمال ، فى حين ان عقولنا فى أدنى مراتب النقص ، من حيث القدرة على التخيل .. فهل يمكن — والأمر كذلك — ان يرتسم الكمال المطلق فى العقل الذى يتصف بالنقص ، بل ان النقص أظهر صفاته ؟.. وهل من الممكن — مثلا — ان نضع جبلا عملاقا فى قنينة محدودة ؟ .. ان مثل الموجود الأول ، بالنسبة للعقل البشرى ، كالنور بالنسبة للعين . . فالعين تدرك وجود النور بآثاره وانعكاساته ، ولكنها لاتستطيع ان تراه فى ذاته ! ..

الانسان اسمى موجودات العالم الأرضى

• **عندما** يريد الانسان أن يصنع شيئا ، فانه يحتاج فى ذلك الى المادة التى يصنعه منها ، والى الأداة التى يستعملها فى الصنع . وما ذلك الا لأن الانسان ناقص ، فهو فى حاجة الى غيره . اما بالنسبة للموجود الأول الكامل ، القادر على كل شىء ، فان الأمر لايحتاج الى آلة أو مادة ، لأن الكمال المطلق يستتبع القدرة . **ولكن الاشياء تصدر من الموجود الأول عن فيض متصل،بحيث يكون وجودها صادرامنه دون ان تكون له حركة فاعلة !**

والموجودات — على كثرتها وتفاضلها فى مراتب الكمال — لاتصدر دفعة واحدة ، وانما هى تفيض عن الذات الالهية ، مرتبة بحسب درجتها فى الكمال .. فيصدر — أولا — اكثر الموجودات كمالا بعد الله ، ويليه ما هو أنقص منه ، وهكذا ..

أما موضع الانسان فى هذا الجدول المتدرج من الخلق ، فانه أسمى موجودات العالم الأرضى جميعا .. والانسان ـ لكثرة ما فى تركيبه من المبادىء والتعقيد ـ تحدث فيه تفاعلات كثيرة ، وتنشأ له قوى مختلفة .. فهو يستطيع ان يعقل وان يتحرك بذاته ، كما انه يستطيع ان يؤثر فى غيره .. وهكذا ، الى آخر ما للانسان من قوى وملكات كثيرة

النفس الانسانية .. وكيف تعمل ؟

• **وأول** ما يحدث فى الانسان من القوى ـ بمجرد وجوده ـ هى القوة التى بها يتغذى ، ولنسمها « القوة الغاذية » .. ثم تنشأ فيه قوى الحس سواء منها اللمس والذوق والسمع والبصر . ومع الحواس تنشأ لدى الانسان « قوة نزوعية » : يميل بها الى الشىء الجميل أو الملذ ، وينفر بها من الشىء القبيح أو المؤلم . ثم تزيد عنده قوة أخرى يستطيع بها أن يحفظ انطباعات المحسوسات بعد أن تغيب من أمامه، وهى « القوة المتخيلة » . وبها ايضا يستطيع الانسان ان يركب من أجزاء المحسوسات أشياء جديدة . ثم تحدث فى الانسان أفضل قواه الا وهى « القوة العاقلة » ، وبها يستوعب المعقولات، ويميز بين الجميل والقبيح، ويحصل العلوم والفنون

وعقل الانسان لايعقل كل الأشياء وحده ، بل انه فى حاجة الى توسط « عقل آخر » روحى ، من العقول الصادرة عن الذات الالهية ، هو « العقل الفعال » . ودور العقل الفعال بالنسبة لعقلنا الانسانى هو نفس دور الشمس بالنسبة الى الابصار : فالعين ـ وان كانت قادرة على البصر بذاتها ـ الا انها لاتستطيع ان ترى شيئا الا فى الضوء . كذلك نجد ان العقل الانسانى قادر على التعقل ، ولكنه لا يستطيع ذلك الا بفيض من العقل الفعال يسمح له بأن يؤدى وظيفته فى التعقل . وكما ان العين تستطيع أن ترى النور الذى لولاه مارأت الاشياء ، فكذلك

العقل الانسانى يستطيع أن يدرك العقل الفعال الذى لولاه ما عقل شيئا . وقد يرتقى العقل الانسانى فى ممارسة التفكير فى مدارك عدة ، حتى يصل الى درجة يدرك فيها السعادة :

ذلك ان العقل الانسانى يرتقى – بمساعدة العقل الفعال – من ادراك الأشياء الحسية،كالشجرة والمنضدة والوردة وما الى ذلك،الى ادراك الحقائق المجردة كالخيرو الفضيلةوالجمال وما الى ذلك ! وكلما ارتقى العقل على هذا النحو، فانه يتلخص من قيود المادة ، ويرقى الى ادراك الحقائق الخالصة ، حتى يصل الى مرتبة دون مرتبة العقل الفعال .. مرتبة هى آخر مايستطيع الانسان أن يصل اليه من المراتب ، يتخلص فيها من كل ما يربطه بشوائب المادة ، فيسمو الى مشارف روحية خالصة. وهنا يستطيع العقل أن يتلقى الحقائق والعلم الخالص من العقل الفعال، دون أن يكون فى ذلك مرتبطا بالمادة وما تبعثه فى العقل من غيوم **واذ يصل الانسان الى هذه الدرجة يكون قد استشعر السعادة الحقة .** ولا تصل النفس الانسانية الى هذه الدرجة الا بممارسة رياضات فكرية خاصة ، من شأنها أن تنقى العقل .. ورياضات بدنية من شأنها أن تجعل الجسم يتخلى عن علائق المادة وشهوات الجسد بقدر ما يستطيع والسعادة هير الخير الأقصى للانسان ، وهى مطلوبة لذاتها : فالانسان فى حياته انما يطلب خيرات عديدة، كلها وسائل يصل بها الى غايات اخرى .. **والسعادة على قمة هذه الغايات، فهى الغاية الوحيدةالتى يتطلبها الانسان لذاتها!** .. أماالافعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة ، فهى الأفعال الجميلة ، وممارسة الفضائل .. وأما الأفعال التى تعوق عن السعادة، فهى الشرور وممارسة النقائص والرذائل

« الفارابى » يهتدى لنظرية الاحلام والنبوة !

• **تقع** « القوة المتخيلة » فى الانسان موقعا وسطا بين القوة

الحاسة – وهى الدنيا – والقوة العاقلة ، وهى العليا . ففى حال اليقظة تنقل « القوة الحاسة » – وقوامها أعضاء الحس فى الانسان – صور المحسوسات الى القوة المتخيلة ، فتكون مشغولة بها . اما اذا نام الانسان ، وبطل فعل قوة الحس ، بقيت قوة التخيل فى نشاطها دون أن تأتيها صور من الخارج ، فتعكف على الصور التى لديها تحللها وتركبها ، فتنشأ من ذلك الأحلام التى لاتكون – فى هذه الحالة – سوى تركيبات جديدة لخبراتنا السابقة (١). **وقد تعبر الاحلام عن حاجة من حاجات الانسان ، كالجوع أو حب الانتقام أو ما الى ذلك . اذ أن لقوة التخيل مقدرة على المحاكاة : فهى تحاكى الصور التى يود الانسان تحقيقها فى حياته ، فتدفعها اليه أثناء النوم . ومن هنا يكون الحلم الذى يعبر عن رغبة يتمناها صاحبه !**

ولكن ثمة نوعا آخر من الأحلام . . وهى تلك الاحلام التى يتنبأ فيها الانسان بشىء جديد ، أو يتلقى خلالها علما جديدا . وتحدث هذه الأحلام عندما تكون القوة المتخيلة على درجة من الصفاء خالصة من شوائب المادة . . فقد يحدث فى هذه الحال أن يلقى العقل الفعال على هذه القوة فيضا من العلم ، فتحدث الرؤيا الصادقة ان كان الانسان نائما ، ويحدث الوحى ان كان الانسان مستيقظا . . ونادرا ما يصل الى هذه الدرجة أحد

وتحت هذه الدرجة درجات كثيرة تختلف باختلاف درجات صفاء القوة المتخيلة . . فهناك من يرى الحقائق فى حال صحوه ويقظته ، وتلك أعلى المراتب . وهناك من لايراها الا نائما ، ومن لايرى من الحقائق الا تخيلات وتشبيهات . وثمة من لايستطيع

---

(١) فسر « الفارابى » الأحلام على انها نشاط للقوة المتخيلة أثناء النوم . وهو تفسير يتفق الى حد بعيد مع ما ذهبت اليه المدرسة التحليلية فى علم النفس ، وعلى رأسها « فرويد »

الا رؤية الأشياء الجزئية فى العالم المادى

نشأة المجتمعات الانسانية وأنواعها

• **والانسان** ـ لكى يبلغ أفضل كمالاته ـ يحتاج الى أشياء كثيرة ومصالح عدة من شئون الدنيا، لايستطيع أحد أن يقوم بها وحده ، ومن هنا نشأت المجتمعات البشرية لتبادل المنافع، بحيث يقوم كل انسان بعمل مخصوص ويتبادل نتائج عمله مع رفاقه فى المجتمع ، حتى يتحقق الاكتفاء لكل فرد من الافراد عن طريق هذا التبادل فى المنافع . **وهكذا نشأت المجتمعات الانسانية ، فكان منها مجتمعات كاملة وأخرى ناقصة .. أما المجتمعات الكاملة فهى على ثلاث درجات: عظمى،ووسطى، وصغرى .. فالمجتمعات العظمى هى التى تشمل الناس جميعا على سطح الأرض ، والوسطى هى التى تشمل الناس فى أمة واحدة ، والصغرى هى التى تضم الناس فى مدينة واحدة ..**

أما المجتمعات غير الكاملة ـ أو الناقصة ـ فهى : اجتماعهم فى قرية ، واجتماعهم فى محلة، واجتماعهم فى سكة، واجتماعهم فى منزل .. فالقرية تعد خادمة للمدينة ، والمحلة جزء منها ، والسكة جزء من المحلة،والمنزل جزء من السكة .. والامة ـ التى تضم كل هذا ـ جزء من أهل الأرض مجتمعين !

على ان الخير الأفضل ، والكمال الأقصى ـ وبالتالى ـ السعادة الكاملة ـ لايمكن ان تنال بواحد من المجتمعات الناقصة، وانما تنال اولا بالمدينة .. وتكون أكمل اذا كان نيلها بالأمة .. وهى اكثر كمالا اذا تسنى منالها بانتظام أهل الأرض جميعا فى أمة واحدة . غير ان هاتين الحالتين الأخيرتين عسيرتا التحقق . وعلى هذا فمن الممكن نيل السعادة باجتماع الناس فى مدينة .. **فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة ، هى « المدينة الفاضلة » . والاجتماع الذى يقوم على التعاون من أجل نيل السعادة ، هو الاجتماع**

الفـاضل .. والأمة التى تتعـاون كل مدنها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفـاضلة .

والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح ، الذى تتعاون أعضاؤه كلها على حفظ حياته .. ونحن نعرف فى البدن قوى وأعضاء مختلفة ، يرأس بعضها بعضا بحسب درجات كمالها، بحيث تنتهى الى عضـو واحد يـكون هو الرئيس على باقى الاعضاء والمسيطر على كل البدن ، وهو القلب . فاذا كان الأمر على هذا النحو فى البدن ، فانه يجب أن يكون كذلك بالنسبة الى المدينة الفاضلة .. **يجب أن يكون فيها عضو رئيسى يتدرج تحتـه مرؤوسون حسب درجات كمـالهم ،** حتى نصـل الى الأفراد الذين لانجد أحدا أدنى منهم .

رئيس المدينة الفاضلة يتلقى الارشاد من الله

• **واذا** كان القلب بالنسبة الى البـدن هو أكمل الأعضاء ، وهو الذى يوجد أولا ، ثم تتبعه بقية الاعضاء ، فكذلك يجب ان يكون الرئيس فى المدينة الفاضلة هو أكمل الأفراد فيهـا ، وهو الذى يوجد الدولة ويحافظ عليها .. ويكون عمله أشرف الأعمال فى الدولة ، يليه فى مقدار الشرف من يليه فى المرتبة ، ثم تقل درجـة الشرف كلمـا زاد البعد بالأفـراد عن رئيس الدولة .. حتى نصل الى الأفراد الذين يقومون بأخس الأعمال فى الدولة

وليس هذا النظام فى الجسد فحسب ، أو فى الدولة فقط ، بل انه فى الكون جميعه أيضا .. فالله هو أسمى الموجودات ، تفيض عنه موجودات أخرى ، تقل فى سلم الكمال كلما بعدت عنه ، ولكنها جميعا تتبع ارادته ، اذ أن أحط المخلوقات يتبع النهج الذى يسير عليه ما هو أعلا منه مباشرة ، وهـذا يتبع ما هو أعلا منه ، وهكذا حتى نصل الى الله تعالى

ولكن رئيس المدينة لايمكن ان يكون أى انسان كيفما اتفق،

وانما لاتتوفر الرئاسة الا بشيئين : اولهما ان يكون الفرد معدا للرياسة بفطرته .. وثانيهما ان يكون قد هيأ نفسه لها بتنمية ملكاته الارادية . فليس كل فرد يستطيع أن يكون رئيسا ، وانما يجب أن تتوفر للرئيس ملكات هى أقوم الملكات ، حتى يكون على رأس المدينة ، دون ان يرأسه أحد أيا كان .. وحتى يكون هو أفضل الأفراد فيها !

ويجب أن يكون الرئيس قد استكمل قوته العاقلة بحيث يقترب من العقل الفعال،ويكون قد ارتفع بقوته المتخيلة بحيث تستطيع ان تتلقى الحقائق مباشرة من العقل الفعال ، سواء فى اليقظة أو المنام .. فيكون الله هو الذى يفيض عليه بالعلم .. وهكذا يكون بالنسبة لملكات تفكيره حكيما فيلسوفا، وبالنسبة الى قوته المتخيلة نبيا منذرا بما سيكون !.. وهذا الانسان انما هو فى أكمل مراتب الانسانية، وفى أعلى درجات السعادة. كما انه يعرف كيف يقود المدينة ويرشد أهلها الى الأعمال الموصلة الى السعادة

١٢ صفة يجب توفرها فى الرئيس

• **ذلك** هو الرئيس الذى لا يرأسه انسان آخر، وهو الامام، وهو الرئيس الاول للمدينة الفاضلة . ولن تكمل هذه المنزلة الا لشخص توافرت فيه اثنتا عشرة خصلة بفطرته :

١ ــ ان يكون تام الأعضاء سليمها

٢ ــ أن يكون ــ بطبعه ــ جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له ، بحيث يفهم القول كما يقصده القائل

٣ــ ان يكون جيد الحفظ لكل ما يراه ويسمعه ويدركه

٤ ــ ان يكون جيد الفطنة ذكيا

٥ ــ أن يكون حسن العبارة ، يمكنه لسانه من ابانة كل ما يضمره ابانة تامة

٦ ــ أن يكون محبا للتعلم والاستفادة ، منقادا للتعليم ،

لا يؤذيه الكد الذى يناله منه

٧ – ألا يكون شرها الى الطعام والشراب والنساء ، متجنبا – بالطبع – للعب ، مبغضا لمن كانت هذه طباعه

٨ – أن يكون محبا للصدق وأهله ، مبغضا للكذب وأهله

٩ – أن يكون كبير النفس ، محبا للكرامة .. تكبر نفسه – بطبعها – عن كل ما يشين من الأمور ، وتسمو الى ما هو أرفع منها

١٠ – أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده

١١ – أن يكون بطبعه محبا للعدل وأهله ، مبغضا للجور والظلم وأهلهما

١٢ – وأن يكون عدلا – غير صعب القيادة ولا جموحا ولا لجوجا – اذا دعى الى العدل ، بل يكون صعب القيادة اذا دعى الى الجور والى القبيح ، وأن يكون قوى العزيمة فيما يرى أنه ينبغى أن يفعل ، جسورا عليه مقداما ، غير خائف ولا ضعيف النفس

الحكمة .. والرياسة

• **فاذا** تجمعت هذه الصفات فى رجل وزادت صفات ست أخرى – سنوردها حالا – كان هذا الرجل أولى الناس بتولى أمر المدينة .. ولكن هذه الصفات جد عسيرة ، وقلما تجتمع فى واحد من الناس · فاذا لم نجد مثل هذا الرجل ، صار لزاما على المدينة أن تتبع الشرائع والاحكام التى وضعها السلف عن مثل هذا الحاكم – وهى عينها التى ذكرناها آنفا

أما الصفات الست التى يجب توفرها فوق تلك ، فهى شروط مكتسبة يحصلها الانسان عند كبره · وهى :

١ – أن يكون حكيما

٢ – أن يكون عالما حافظا للشرائع والسنن والسير التى

خلفها الأولون للمدينة ، محتذيا بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها

٣ ـ أن تكون له جودة استنباط فيما لايحفظ عن السلف من الشرائع ، ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذيا حذو الأئمة الأولين

٤ ـ أن يكون له جودة روية وقوة استنباط ، حتى يتيسر له أن يصدر الحكم الصائب على المستحدثات من الأمور ، مما لم يكن له شبيه فى حياة السلف .. وأن يكون متحريا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة

٥ ـ أن يكون له جودة ارشاد ـ بالقول ـ الى شرائع الأولين والى الشرائع الأخرى التى استنبطها هو

٦ ـ أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب، وأن يكون مجيدا للفنون الحربية بالاضافة الى لياقته البدنية

هذه هى الشروط المكتسبة التى يجب توافرها فى الرئيس، فاذا لم يوجد واحد اجتمعت فيه هذه الشروط ، ووجد اثنان ـ واحد منهما حكيم ، والآخر جامع للشروط الباقية ـ كان الحكم بينهما بالاشتراك . واذا وجد الحكيم ، ووجد خمسة آخرين كل واحد منهم يتحلى بصفة من هذه الصفات كانوا هم الرؤساء الأفاضل . **أما اذا لم يوجد الحكيم فلا يمكن أن يكون أحد رئيسا للمدينة ، حتى ولو اجتمعت فيه كل الشرائط الباقية** . ذلك لانه اذا تولى أمر المدينة رجل لايتصف بالحكمة ، فانها لا تلبث أن تتعرض للهلاك ، ان لم يظهر فيها حكيم يجنبها أن تهلك

المدينة الفاسقة ..

• **والى** جانب المدينة الفاضلة ، توجد أنواع أخرى على النقيض منها ، هى : المدينة الجاهلة ، والمدينة الفاسقة ، والمدينة المتبدلة ، والمدينة الضالة !

فالمدينة الجاهلة ، هى تلك المدينة لم يعرف أهلها السعادة

ولا خطرت ببالهم ، وان هم أرشدوا اليها لم يقيموها ولم يصدقوها . ذلك أنهم انصرفوا عن السعادة الى غايات أخرى ظنوا أنها السعادة ، وما هى منها فى شىء ، مثل سلامة الأبدان ، والثراء ، والتمتع باللذات .. فهم يرون ان السعادة العظمى تتوفر اذا اجتمعت هذه الغايات !

وأما المدينة الفاسقة ، فهى التى كانت تعتنق آراء المدينة الفاضلة ، وكانت تعرف السعادة الحقة ، وتعرف الله ، ولكن أفعالها تبدلت .. فاعتنق أهلها افعال أهل المدينة الجاهلة ، ورأوا رأى هؤلاء فى السعادة ، فنهجوا نهجهم !

أما المدينة المتبدلة ، فهى التى يعمل أهلها على نيل الثراء دون ان ينتفعوا بمالهم ولا بثرواتهم فى حياتهم .. فما غايتهم القصوى سوى جمع المال فحسب .. جمع المال لمجرد تكديسه

وأما المدينة الضالة ، فهى تلك التى يقصد اهلها الى التمتع باللذات الحسية دون العقلية .. فهم ينصرفون — لذلك — الى اللهو واللعب ، ويشغلون بهما عن تنمية ملكات نفوسهم !

واذا كانت الملكات تقوى بالمران ، فان الواحد من أهل المدينة الفاضلة يظل يرتقى مدارك السعادة ، حتى يستغنى — الى آخر حد ممكن — عن المادة ، فيكون شبيها بالعقل الفعال — وهو الواسطة بين الذات الالهية والانسان — وينال غاية السعادة .. فى حين أن الواحد من أهل المدينة الضالة يمنى بتضاؤل ملكاته شيئا فشيئا لعدم المران والممارسة للأفعال المؤدية الى السعادة الحقة . وتظل ملكاته فى الضعف ، حتى تنحل وتتلاشى

ومجمل القول أن أهل المدينة الفاضلة أقرب ما يكونون الى الله ، فى حين أن أهل المدينة الضالة أقرب مايكونون الى الارض .. ومعنى هذا ان النفس الفاضلة تحظى بالسعادة بعد الموت ، لأنها تكون قد تخلت عن المادة بقدر ما وسعها فى حياتها ، فصارت أقرب الى الموجودات الخالدة .. أما النفس الضالة التى انعدمت ملكاتها ، فانها تفنى بالموت !

الخوف هو قوام المجتمعات الضالة

• **والمدن** الجاهلة تتصارع فى سبيل الوصول الى السلامة والثراء وتحصيل اللذات ، وتمضي فى ذلك الى درجة يكون عندها القتال هو الشريعة الحاكمة عليها . وهنا تظهر فكرة غريبة فى العدل .. فالطوائف القوية الغالبة تعتبر نفسها قد أقرت العدل ، عندما تفرض سيطرتها على الطوائف الضعيفة. ويتبع ذلك انها تفرض رغباتها على هذه الأخيرة ، وتسيرها من أجل رغباتها هى ، دون ان يخرج ذلك — فى مفهومها — عن نطاق العدل !

أما اذا كانت القوى متساوية ، فان النزاع يطول دون ان يفضى الى اقرار حال بعينها . وهنا تضطر المجتمعات الى ترك القتال ، ولكنهم لا يتركونه الى الأبد ، وانما يفعلون ذلك ريثما تتأتى القوة لمجتمع منهم على زميله ، فيعاود مصارعته ليغلبه ، وليسخره فى سبيل تحقيق رغباته . وعند ما تقلع المجتمعات عن القتال لهذا السبب ، يسود بينها أنواع من الود ولكن ذلك فى الحقيقة مصدره الخوف .. خوف كل واحدة منهما أن يعود القتال الطويل فينشأ بينهما .. وان كان كل منهما — فى الوقت ذاته — يتحين الفرص لينقض على صديقه !

وقد يحدث أن يتعرض المجتمعان المتصارعان لخطر خارجى داهم ، يريد أن يقضى عليهما معا ، فيضطران فى هذه الحال الى التعاون والتآزر فى سبيل دفع ذلك الخطر . حتى اذا زال، عادت اليهما رغبتهما الأولى فى أن يقهر أحدهما الآخر !

فاذا شب انسان فى حال كهذه ظن أن العدل انما يتحقق فيها ، ونشأ فى ذهنه مفهوم خاطىء للعدل .. فيظن أنه المسالمة وتبادل المنافع عندما لا يجد أحد الجانبين الوسيلة لاخضاع الآخر ، أما اذا وجد هذه الوسيلة فيكون العدل هو أن يخضع الضعيف للقوى ! .. وعلى ذلك فان هذا النوع من المجتمعات

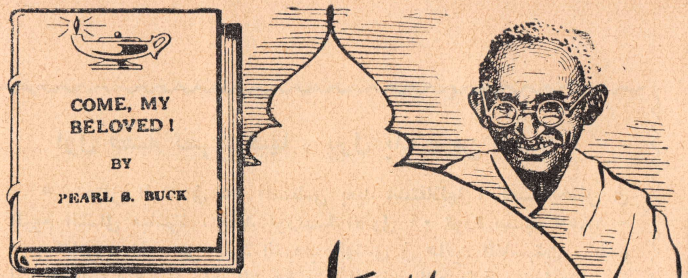
الضالة انما يقوم على الخوف .. فهو يبغى أن يسيطر على غيره ، ولكنه يخشى من ان تكون لدى هذا الغير رغبة مماثلة !

التظاهر سبيل الى الحكم

• **واذا** كان بعض أهل هذه المدن الجاهلة ينزع الى السيطرة – اعتمادا على ما له من قوة – فان بعضهم يتبع طريقا آخر غير القوة ، **هو التظاهر !** .. اذ يتظاهر بأنه زاهد فى لذات الدنيا ابتغاء للذات الآخرة التى يطمع فيها بعد الموت ..

مثل هذا الرجل يحترمه الناس لزهده فى الدنيا ، ولأنه لا يطمع فيما لديهم .. فاذا احترموه واستشعروا الأمن منه، فانهم قد يولونه أمرهم ، وهنا يكون للرجل ما أراد من سلطان يحقق له رغباته التى يحفظها فى صدره !

ومن هنا تختلف السبيل التى يتبعها كل واحد من أهل المدينة الجاهلة فى تحقيق مآربه ، فبعضهم يحققها بالقهر ، والبعض لآخر يسعى اليها بالحيلة والخداع .. وكل ذلك مما يضاد آراء أهل المدينة الفاضلة ، الذين يعكفون على تنمية نفوسهم وقواها ، سعيا منهم الى أن يتصلوا بالعقل الفعال اتصالا يشبه الذى تحلى به رئيس مدينتهم .. وهم جميعا يعملون فى نظام ، يرأس بعضهم بعضا بمقدار ما فى ملكاتهم من الكمال ، ويخضعون فى النهاية للرئيس الذى يعمل على تحقيق الخير لهم ، حتى يصلوا فى النهاية الى غايتهم القصوى وهى.. السعادة الحقة !



تعال يا حبيبي!

للروائية ذات الصيت العالمي: "بيرل بك"



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

أول قصة تخرج فيها « بيرل بك » من الصين !

◆ تحتفل الهند فى ١٥ أغسطس بعيد استقلالها ، كما تحتفل فى اليوم التالى مباشرة ، بعيد ثورتها الأولى ٠٠ ثورة سنة ١٨٥٧ ٠ و « كتابى » اذ يحيى جهاد الشعب الهندى فى هاتين المناسبتين ، يقدم لك تلخيصا وافيا للرواية التى وضعتها الكاتبة الأمريكية « بيرل بك » ، عندما أعلن استقلال الهند ٠ وقد عرفت « بيرل بك » بتخصصها فى تأليف القصص التى تدور وقائعها فى الصين – حيث عاشت شطرا طويلا من حياتها – ولكنها فى هذه القصة بالذات ، خرجت عن عادتها – للمرة الأولى – فاختارت الهند ميدانا لوقائعها

ولقد حاولت المؤلفة – وهى ترسم صورة رائعة لجهاد الهند بين الحربين العالميتين الأولى والثانية – أن ترسم صورة أخرى لثلاثة أجيال من الأمريكيين : الجيل الأول يمثله رجل الأعمال الذى تذرع بالدين كى يكفل لنفسه الشهرة ويقحم اسمه فى تاريخ الشعب الهندى ، فلما رأى ان الدين استهوى ابنه وأوحى اليه برسالة أقصته عن دنيا السياسة والمال ، حول المعهد الدينى الى مصنع !٠٠ وأما الجيل الثانى ، فقد تظاهر بنشر العلم والوعى ، فى حين انه كان يناصر أبناء عمومته الانجليز على الهنود ٠٠ ثم جاء الجيل الثالث ينادى برسالة الاصلاح فى قرى الهند ، ويدعو الى المساواة بين البشر ، فلما أوشكت ابنته أن تتزوج من شاب هندى ناجح ، ثارت نعرته الامريكية ، ونسى رسالته و ٠٠

ولكنى لا أريد أن أفسد عليك متابعة أحداث القصة فى أوانها :

الجزء الأول

• **كان** قسم الاستعلامات بالفندق الكبير – « جراند اوتيل » – غاصا بالوافدين ، والفناء يضج برطانات شتى ، تغلب عليها اللغة الانجليزية ٠٠ وكان من السهل ان يتبين المرء ان الانجليز كانوا يحظون بالاهتمام الاول ، ولكن امريكيا طويل القامة ، عريض المنكبين ، أبى ان يتزحزح عن مكانه من صف

الوافدين ، رغم الضغط الذى كان يتعمده الانجليز .. حتى اذا بلغ سجل النزلاء ، كتب اسمه : « دافيد هاردويرث مكارد وولده » . ثم ضرب بالقلم على : « وولده » ، والتفت الى شاب خلفه كان شديد الشبه به ، وقال : **« اعتقد ان الوقت قد حان لتكف عن ان تكون «وولده» .. لقد كانت أمك تأبى ان تكون « وزوجته » وتصر على تسجيل اسمها ! »** ..
واختلجت اعصابه قليلا لذكرى زوجته ، بينما تقدم الشاب فكتب اسمه : « دافيد مكارد »

وكانت الشمس حامية ــ عندما غادرا الفندق بعد الغداء ــ وتقدم رجل من الهنود فأفسح لهما بين الجموع المتباينة الأزياء ، وزج بهما فى عربة يجرها ثور ، وانطلق بهما خلال الزحام نحو السوق .. والجو مفعم بالهواء الساخن ، وروائح التوابل النفاذة ، وعبير الزهور والفواكه .. والطرق مزدحمة بأفواج من الهندوكيين والمسلمين والملايويين والمجوس والافغانيين والصينيين واليابانيين والتبتيين وزنوج السواحل الجنوبية ..

* * *

• **طبعت** الهند على فؤاد « دافيد » أثرا قويا ، لعل الفضل فيه كان راجعا الى صديقه « داريا » .. فلقد مال الى الشاب الهندى النحيل ، منذ التقى به فى لندن ، ولكنه لم يجد وقتا متسعا للحديث معه .. ولقد تمنى ان يرافقه « داريا » على الباخرة التى استقلها مع ابيه الى (بمباى) ، ولكن داريا آثر عليها باخرة فرنسية ، وهو يقول : **« اننى لا أسافر قط على سفينة انجليزية ! »** .. وظل دافيد يرتقب انباءه ، حتى اذا علم انه قد وصل الى بمباى ، سارع الى زيارته ، فى أصيل أحد الايام .
ولأول مرة منذ وفاة أمه ، شعر «دافيد» بسكينة وطمأنينة .. بل احس ان داريا قد ايقظ قلبه ، أو لعله حرك عقله .. انه لم يكن يدرى !

ففيما كانا يجلسان امام بركة فى حديقة دار الشاب الهندى، ألقى هذا سؤالا كان خليقا بأن يبد وغريبا ، لولا انهما كانا فى الهند : **((ما دينك يادافيد ؟)) .. هكذا سأله فى بساطة، وكأنه يستعلم عن اجداده أو أصله . فتردد دافيد ، ثم اجاب : ((المفروض اننى مسيحى !)) . .** فقال داريا : ((لست أعرف شيئا عن المسيحية، ولكن . . هل دينك جزء من حياتك؟)) . . وحاول دافيد انيكون أمينا صادقا وهو يقول : ((الى حد ما . . ان الدين عندنا يجب ان يتمثل فى اعمال واقعية . . فنحن — مثلا — لا نحتمل ، أو لانسمح بمثل هذا الفقر الذى فى بلادكم يا داريا ، وانما نحاول ان نفعل شيئا بصدده . . وهذا جزء من ديننا !))

وهتف داريا : ((وماذا عن النفس ؟ .. عن العقل ، عن القلب، عن الصلة بالله !)) . . فأجاب دافيد : ((هذه مسألة شخصية)) . ولكن هذا الجواب لم يشف غليل داريا ، فقال : ((وما شأنها لديك انت ؟)) . . فأجاب : ((ليس لها شأن كبير . . لقد كنت اذهب مع والدى الى الكنيسة فى الطفولة ، ولكننى لا اذهب الآن . . ولقد فكرت فى هذه النواحى مرارا — منذ وفاة أمى — ولكنى لا أدرى كيف أبدأ الصلاة من جديد ، فليس فى وسعى ان أصلى كما كنت افعل وأنا طفل ، ولست اعرف كيف أصلى كرجل . . بل اننى غير واثق من واقعية الصلاة ، وان كنت اؤمن بالله ، أو اننى — على الأقل — لا أملك ان أقول اننى أومن به . . فلست أجد تعليلا لوجود الكون ، الا فى وجود الله !))

وهنا قال داريا مفكرا : ((ليس الدين شيئا من هذا)) . . فسأله دافيد، وهو يحملق فى وجهه: ((اذن، فما الدين ؟)) . . وكان جواب داريا : ((لست أدرى كيف أصفه لك . . انك لاتستطيع ان تراه ، ولكنه — مع ذلك — فى كل مكان !)) . . وما لبث ان تحول قائلا: ((لاتقل ان امك ماتت، فانما هى ولدت من جديد)) . فقال دافيد : ((ان ديننا يقول — هو الآخر — ان

الموتى احياء ! » . فهتف داريا : « ولكنني أعنى الحياة الواقعية المادية .. فليس لك ان تحزن على امك ، فقد يقدر لك يوما ان تلتقى بها ! »

وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله .. وود دافيد ان يحدث صاحبه عن المسيحية ، ولكنه تبين ان معرفته بها ضئيلة، وقد تلقاها من الغير ، فليس لديه شيء نابع من نفسه . وما لبث داريا ان قال : **« ان دياناتنا لاتنبع من مورد واحد ، بل هى مصب تتدفق فيه ديانات كثيرة .. انها أكبر من ان يتسنى استيعابها ، ومع ذلك فانها تتكاثف وتقطر شيئا فذا ذا طابع فردى !.. اننى آمل ان أستطيع ان أشرح لك ذلك يوما !» ..**

ولكن الفرصة لم تسنح لذلك ، فلقد قرر والد دافيد مغادرة الهند فجأة ، فانصاع له الشاب ، اذ كانت أمه قد عودته ان لايعارض قرارات ابيه المفاجئة . . فقد كانت تعقبها عادة مشروعات جليلة من وحى عبقريته .. مشروعات من نوع تلك التى جعلت « مكارد » يسيطر على سكك حديدية ، وعلى شركات للبترول والفولاذ والفحم والتعدين والسفن والجسور!

* * *

• **واقبل** الصيف ، فلم يبرح دافيد (نيويورك) .. ولم يكن شقيا بذلك ، فقد هدأت الوحشة التى كان يستشعرها لوفاة أمه، واستحالت الى أسى وادع حالم !.. وسأله ابوه ذات صباح، وهما يتناولان الفطور : « لعلك تحب ان تساعد الدكتور بارتون فى مهمة عهدت بها اليه ! »

واخذ يبسط له هذه المهمة .. فقد قرر انشاء معهد دينى كبير ، تخليدا لذكرى زوجته .. وفى غمرة الدهشة التى استولت على دافيد ، مضى الأب يقول : **« لقد واتتنى الفكرة عقب زيارتنا للهند ، اذ لمست فارقا كبيرا بين الانجليز والهنود، وبيننا وبين هؤلاء البؤساء !.. لابد ان هناك سببا لازدياد**

ثروة الغرب وسلطانه .. سمه فضلا من الله، بالتعبير الدينى! .. لقد أطحنا بالطغاة – الذين كانوا يستبدون بنا – بوحى من ايماننا .. فاذا صدق هذا ، فان واجبى كمسيحى يقتضينى ان اشرك العالم ما لدى .. والطريقة الوحيدة للافادة من هذه الفكرة الكبيرة ، هى تعليم الناس ان يحققوها » .. وهكذا كان على المعهد الدينى المرتقب ان يخرج رسلا لتعليم الهند ان الايمان يهزم الطغاة !

وانحدر دافيد – فى أصيل ذلك اليوم – الى الجانب الآخر من التل ، نحو نهر (هدسن) ليتأمل الموقع المقترح للمعهد .. وكان موقعا بديعا ، ولكنه كان موحشا ، نائيا عن حياة البشر، فتساءل دافيد: كيف يفهم الناس الله ورسالة الأرض والسماء؟ .. وهل التدريس فى معهد يجدى ؟.. وتبع ببصره النهر الفضى الذى كان ينساب بين الجبال المنخفضة ، ثم انحرف عنه الى خط حديدى كان يجرى بجواره ، واذا عيناه تصادفان – نحو الجنوب – مروجا توسطها قصر فخم المظهر ، ذو اعمدة ضخمة .. ولكنه كان يبدو مهملا ، رغم أبهته !

وألفى قدميه تسعيان به الى ذلك القصر، فاذا الباب الأمامى مفتوح .. **وفجأة ، أقبلت خلال الباب فتاة سمراء ، بديعة الحسن ، ذات قوام مفرط فى النحافة والاتساق ، وقد لطخ الوحل يديها .. وزعم دافيد انه كان يبحث عن مجرى النهر، فأرشدته اليه . ولكنه تلكأ ، اذ ايقظت الفتاة خياله ! ..** وما لبث ان قال : « يا له من قصر بديع ! » .. فقالت : « اننا لانقيم هنا فى الشتاء، منذ وفاة أبى .. وقد بكرت وأمى بالمجىء فى الربيع ، كى أعيد للحديقة رونقها . . فالقصر معروض للبيع ! » .. واذ ذاك ، طاف بذهن دافيد خاطر .. ليس ثمة أفضل من هذا المكان موقعا للمعهد الدينى الذى يعتزم ابوه انشاءه .. ولم يتمالك ان صارح الفتاة بذلك ، فتفرست فى وجهه ، ثم قالت : « لقد أوشكت ان أتمرد على الله ، بل ان

اكرهه !.. فأنا جد يائسة !.. لقد قالت له : اذا لم تساعدنى الآن ، فلن ادعوك قط ، ولن اؤمن بك بعد اليوم ! »

واذ عرفها بنفسه ، قالت انها تدعى « اوليفيا ديسارد » ، ثم دعته الى داخل القصر لتريه غرفه العشرين ، ولتقدمه الى امها .. وان هو الا اسبوع ، حتى كان «مكارد» يقف فى شرفة القصر ، يتأمل الموقع . وما لبث ان التفت الى اوليفيا قائلا : « سأبتاع القصر ! »

واعد الشاى داخل الدار .. وبينما شغل «مكارد» بالحديث مع الأم ، كان دافيد يتحرق شوقا الى ان يخلو الى اوليفيا ، وهو فى حيرة من امر هذا الشوق ! . لذلك لم يلبث ان استدرجها الى ضفة النهر ، وقد أحس برغبة ملحة فى ان يعرفها عن كثب .. وكانت فتاة متزنة ، رصينة !.. وألفى نفسه يحدثها ـ حين جلسا على الضفة ـ عن الهند ، وعن صديقه داريا، فقالت اوليفيا: **« لقد قضى جدى زمنا فى الهند، ومما أذكره عنه انه كان يقول ان الهند تبدل كل امرىء يطأ أرضها ! »**

وفى تلك اللحظة سمعا نداء ، فالتفتا واذا مكارد قد تأهب للرحيل ، فاضطرا الى ان يفترقا . وقالت الفتاة وهى تحدق فى عينيه السوداوين العميقتين : « الا عد لزيارتنا ! »

ولكنه لم يزرها الا بعد أسابيع عدة ، فقد عز عليه أن يكون على مقربة منها بينما كان ابوه منهمكا فى اجراءات الاستيلاء على القصر . واستكان دافيد الى الخمول ، ثم لم يلبث ان ارسل لصديقه الهندى يدعوه لزيارته .. كان قد مل صحبة أبيه ، فما كان ليفهم الشئون التجارية او المالية أو السياسية التى كانت تشغل بال الأب ، وانما كان يصبو الى حياة أخرى ، والى عالم يختلف عن عالم أبيه .. عالم يكون للعقل والروح فيه اهمية تفوق ما للمال والسياسة !

★ ★ ★

• لم يكن «داريا» يتوقع الحفاوة التى استقبله بها «دافيد» فى (نيويورك) . ولكم تردد فى تلبية دعوة صديقه الامريكى ، فقد كانت تجاربه مع الانجليز تكربه!.. **كان يمضه ذلك الفارق الذى لمسه بين مسلك الانجليز فى بلادهم ــ حيث تعلم وحصل على أرقى درجات الامتياز بجامعة كمبريدج ــ ومسلكهم فى الهند . فقد كانوا كراما فى بلادهم ، حتى اذا ذهبوا الى الهند كحكام، غلبت عليهم الغطرسة والكبر والصلف.. ولكن ترحيب دافيد سرعان ما بدد مخاوفه !**

وفى خلال ثلاثة أسابيع ، كان داريا قد شاهد (نيويورك) وزار متاجرها ومسارحها ، وسمع أحدث موسيقاها . . وفى ذات يوم ، قال لدافيد فجأة : « يجدر بك ان تتزوج ياصديقى !» .. وابتسم الشاب فى استحياء ، ثم سأله عما أوحى اليه بالفكرة ، فقال داريا : « هذه الدار الفسيحة .. وابوك الذى لم ينجب سواك ! » .. وهز دافيد رأسه فى أسف، ثم أفضى الى صديقه بقصته مع اوليفيا ، فلم يدعه داريا ، حتى اصطحبه لزيارتها . . وفيما كانا يسيران على مقربة من النهر ، قال الهندى : « انه ليذكرنى بنهر الجانجز .. ان أبى يذهب اليه فى كل عام ، ويعود بجرار مترعة بمائه المقدس! » . وهنا قال دافيد : « هذا شىء لا افهمه .. كيف تتفق قداسة الجانجز مع دراستك فى كمبريدج ؟ » .. فوقف داريا، ورسم خطا من مفرق شعره الى قنطرة انفه وهو يقول : **« هنا خط غير مرئى ، يقسم رأسى قسمين . . ففى الجانب الأيسر ــ جانب الفؤاد ــ دينى . . وفى الجانب الآخر كمبريدج والعالم الحديث والعلم .. كل من الجانبين منفصل عن الآخر ، وفى حصانة دونه !.. ان العلم متخلف جدا عن الهام الدين، وما لم يعترف بالايمان ، فسيظل الخط الفاصل بينهما قائما ! »**

ولم يحر دافيد جوابا ، فقد تبين ان عقله كان ــ حتى ذلك الحين ــ غير مبدع ولا خلاق ، وانما كان يستوعب ما يلقى

اليه ، ويحفظ ما يقال له ، دون ان يكون له رأى خاص !

* * *

• **واذ** اشرفا على دار «اوليفيا» ، قال الهندى : « اذن فهذا هو مهد المعلمين الذين سيوفدون الى قومى .. انه لشىء جد امريكى ! » . فتملك دافيد غيظ فجائى ، وقال : « اعتقد ان خير ما يقدمه شعب لشعب، هو الصفوة المختارة من رجاله » . فتساءل داريا : **« وهل يكون ذلك متبادلا ؟ .. هل يقبل قومك ان نوفد اليهم رجالا من عندنا ؟ .. اننى ارشح نفسى لأن أبشرهم بدين قومى ، فهل يقبل ابوك ؟ »** .. وهتف دافيد مغيظا : « أتمزح ؟ » . ولكن داريا أجاب : « البتة! .. أليس من حسن الادراك ان تستخدموا رجلا هنديا فى اعداد مدرسيكم الشبان لتلاميذهم ؟ .. أليس من الخير ان يعرفوا البلاد التى سيوفدون اليها ؟ » .

وأصاب السهم مرماه . ووقف كل من الشابين أمام الآخر متحفزا . وقبل ان يتكلم احدهما ، اقبلت «اوليفيا» .. وعرف دافيد صديقيه كل بالآخر ، ثم ساروا معا نحو الدار . وبدا جليا ان داريا قد تأثر بالفتاة السمراء الرصينة ، وان اوليفيا قد تأثرت بداريا ، فانطلقت فى الحديث معه ! .. أبدا لم يسمعها دافيد تتكلم بهذه الحرارة ، ولا رآها منطلقة متحررة بهذا الشكل ، حتى لقد أحس فجأة بالغيرة! .. كان داريا قادرا على ان يجعلها حرة طليقة ، فى حين انها كانت معه كثيرة الخجل

وفى هذه المرة ، أيقن دافيد بأنه كان يحب اوليفيا .. ووجد نفسه يتفادى الحديث مع داريا عنها ، منذ ذلك اليوم . حتى اذا آن للشاب الهندى ان يعود الى بلاده ، أحس دافيد بوحشة ممضة ، فما لبث ان سعى الى اوليفيا .. وران عليهما صمت طويل ، عندما التقيا . ولكن دافيد لم يلبث ان قال: «اوليفيا!» .. فالتفتت اليه فى رزانة ، بينما استطرد قائلا : « لقد جئت اليوم

من اجلك .. انت وحدك !.. اننى .. احبك ! » . وخانه صوته ، فانبعثت الكلمة الأخيرة كهمسة . . وأجابت اوليفيا لفورها ، فى رصانتها المعهودة : « اواه يادافيد ! .. لشد ما أنا آسفة، لأننى لم أكن أعرف ذلك،والا ما تركتك تذهب بعيدا.. على اننى ما أحسبك أوغلت فى حبى بحيث يعز عليك النسيان!»

وعصاه لسانه ، وخانه صوته ، ولكنه استطاع اخيرا ان يقول : « ولماذا ؟.. لماذا لاتستطيعين ان تحبينى بدورك؟ » .. فطوحت بذراعيها قائلة : **« وكيف لى ان اعرف ؟.. ربما كان ذلك لأنك لست من قوة الشخصية كما ينبغى ، وانا لا أحب أن أكون الطرف الأقوى .. أريد أن أتطلع الى رجل ، أما انت فلست سوى .. ابن مكارد العظيم ! »**

وجزع اذ شعر برغبة طاغية فى البكاء ، فأسرع نحو ضفة النهر ، واستلقى على بقعة تكاثفت فيها الأعشاب ، وأطلق لدموعه العنان .. وعندما انتبه الى نفسه ــ بعد وقت طويل ــ تبين انه كان يتمتم بأول أدعية فى حياته : « اواه ، يا الهى !.. ماذا أفعل ؟ » .. وأحس بالاكتئاب والحيرة يكتنفانه . وراح يفكر فى أمه فى حزن جارف .. لو انها كانت على قيد الحياة ، لوجد لديها العزاء والسلوى !.. وتمثلها امامه، فخيل اليه انه يسمع ضحكتها ، ولهجتها الحانية : **« اذا كانت تريد أن تتطلع اليك، فلماذا لاتشرع فى الارتفاع عن المستوى الذى تقف فيه؟ »..**
وأحس بكل كيانه ينصهر، ثم يصفو ويتحول الى رغبة طاهرة، تشكلت فى أدعية حارة: « يا الهى !.. ارشدنى، كيف ابتدىء!»

وكان الجو حارا، راكدا .. ومكث فى مكانه خاوى الرأس.. وفجأة، تمثلت له الهند، ووجوه سمراء تتطلع اليه فى دهشة. وأجفل . . ما معنى ذلك ؟.. هل له من معنى سوى انه استجابة لدعائه .. ليس هنا من هو فى حاجة اليه ، ولكن الحاجة فى الهند لا حدود لها !

* * *

• **وثار** أبوه ، ولكنها كانت ثورة حزينة هادئة ، اذ لم يكن بوسعه ان يقسو عليه .. وأشاح مكارد ببصره عن صورة زوجته ، وقال : « لست أقيم معهد مكارد التذكارى ليكون ابنى الأوحد اول خريجيه.. من الذى يخلفنى؟ » .. ثم طوح بذراعيه فى قنوط ، وهو يقول : **« يا لها من مهزلة !.. لقد بسطت شبكة ، فاذا ابنى هو الصيد !.. لقد قامرت على الله، فخسرت ابنى ! »** ولكن دافيد لم ينثن ، بل قال فى حزم : « لقد عقدت عزمى على ان تكون لى حياتى الخاصة ، أسيرها وفقا للارشاد الالهى .. لابد لى من أن أفعل ما أراه صوابا!» .. فصاح مكارد : **« اذن فسوف أحول المعهد الى مصنع ! »**

ولم تنقض شهور ، حتى كان دافيد يجلس فى حجرة متواضعة بالهند ، يتلقى أصول « السانسكريتية » على يدى هندى طويل ، متقشف ، من العنصر « الماراثى » . كانت أصول الفكر الهندى كلها فى المؤلفات السانسكريتية ، وشد ما دهش دافيد اذ وجد تشابها عظيما بينها وبين أصول الفكر المسيحى ، حتى لقد شعر يوما بأن من واجبه ان يعتذر لمعلمه عن رجوعه الى الكتب الدينية المسيحية للمقارنة ، فاذا الماراثى يهز رأسه قائلا : « وفيم الاعتذار ياصاحب ؟.. ان المسيحية عقيدة ، ومن ثم فهى شىء صالح .. كل الديانات خير ! »

ولم تكن حياته فى (بونا) خالية من البهجة . فقد كان بيت الارسالية كبيرا مريحا ، وكانت الجالية الانجليزية تدعوه الى حفلاتها ، كما كان الحاكم يدعوه الى مآدبه . ومع ان «روبرت فوردهام » ـ رئيس الارسالية ـ كان ينصحه دائما بعدم حضور هذه الحفلات ، الا انه كان يسلم معه بضرورة التقرب الى الحاكم الانجليزى .. بل ان « فوردهام » كثيرا ما عارض الشبان الهنود ، عندما كانت عزتهم تثور ، فيتحدثون عن ضرورة استقلال الهند .. وكان يعنف فى المعارضة ، فيقول ان

الهند كانت احسن حالا ــ تحت حكم الانجليز ــ منهــا عندما كانت ترزح تحت ربقة الحكام الاقليميين !!

★ ★ ★

• **وبينما** كان دافيد يتناول الفطور مع فوردهام وزوجته ــ ذات صباح ــ سأله الأول عن الموعد الذى اختاره ليلقى فيه أول درس دينى ، فنحى دافيد الطعام من أمامه ، وقد رأى ان الوقت قد حان ليعلن انه ما جاء ليلقى دروسا دينية فى كنيسة صغيرة ، على نفر قليل يوفدون بعد ذلك الى القرى النــائية ، ليقوموا بمهمة المبشرين بين قوم يكادون ان يموتوا جوعا ! .. **ولكنه كان ــ على العكس ــ يسعى الى مهاجمة جمود الهند ، بوساطة هنود يختارهم من الشباب، وييسر لهم دراسات عليا، ويعدهم لقيادة الشعب !..** كان يعتزم انشاء مدرسة راقية ، تسير على نمط مدارس الحكومة الانجليزية هناك ، ثم يرقى بها الى جامعة تضم كلية للطب ، ومستشفى . . وكان يعتزم أن يختار لكل قسم أذكى الأولاد ــ وربما البنــات ، فيما بعد ! ــ دون اعتبار لطبقة او ثروة !

وزاره داريا ذات يوم، وهو وحيد فى دار الارسالية، فرمقه بعينين حادتين ، نفاذتين ، وقال : « انك تكبد نفسك ما لاطاقة لها به يا دافيد ، اذ تحاول أن تكون قديسا . لمــاذا لاتتزوج ؟ هل نسيت اوليفيا ؟ . . ان دينكم لايحتم عليكم ما يحتمه ديننا على كهنتنــا من العيش دون زواج . . بل انك لم تؤت الطاقة على ذلك ! . . انك فى حاجة الى مصــدر للحياة تستمد منــه الطاقة ، وفى وسعك أن تجد هذا المصدر فى اوليفيا ! »

والفى دافيد نفسه مضطرا الى ان يصارح داريا بأنه عرض على الفتاة الزواج فرفضت ، واذ ذاك هتف داريا : « لقد كانت هذه حماقة منها ! . . كان خليقا بها أن ترى انها هى الأخرى بحاجة اليــك . . كان بوسعك ان تعلمهــا كيف تلين ، كما ان

بوسعها ان تعلمك كيف تقوى ! » . . وضغط يده مردفا : « سلها مرة اخرى ان تكون زوجة لك »

واومضت عينا داريا وهو يصغى الى شرح دافيد لتخريج شباب هندى متعلم، قوى الايمان، ثم تساءل : « وهل ستجعل هؤلاء الشبان جميعا مسيحيين؟» ، فأجاب دافيد: «سأجعلهم، ولكن .. ليس رغما عن ارادتهم » . فهتف الشاب الهندى :

« اذن ، فسوف تسحرهم ..انني أعرف أساليبكم الغربية!.. لسوف تحيطهم بوسائل الرفاهية ، وتحملهم على الاعتقاد بأن ماءكم النقى ، وغرفكم النظيفة ، وأسرتكم الوثيرة ، وحرياتكم الواسعة ، وغذاءكم الصحى ، كلها من ثمار دينكم .. ولن يلبث الأطباء الشبان أن يأنفوا العمل فى القرى ، كما سيأبى المدرسون أن يذهبوا الى المدارس القروية ،وستنشد الفتيات أزواجا يستطيعون أن يتيحوا لهن بيوتا كبيوتكم .. هذا هو كل ما سيفهمونه من المسيحية ! »

ــ هل هناك ما يمنع المرء من ان يكون مسيحيا وان يعيش فى منزل نظيف ، يضاء بالكهرباء بدلا من الزيت الذى يبعث دخانا ؟

ــ انه يجب ان يسير ، لا ان يقفز ..انه لايستطيع أن ينتقل من القرية الى أمريكتكم مباشرة ، بل لا بد له من ان يعود الى قريته وأن يعيد انشاءها بيديه !

وفى تلك الليلة ، ألحت اوليفيا على دافيد فى احلامه ، فنهض فى بهيم الليل ، وقد قرر ان يكتب لها ، وان يعاود المحاولة . . ولم يطل به الانتظار ، اذ لم يلبث ان تلقى من الفتاة ردا ، ما ان وقعت عليه عيناه ، حتى امتلأ قلبه بعد خواء . . فلقد قبلت اوليفيا أن تكون له زوجة ، على غير ما توقع !

الجزء الثانى

• **كانت** الشمس تنحدر للمغيب خلف البحر الاحمر ،

فوقف الشاب الأمريكى والفتاة الانجليزية الرشيقة يتأملانها .. كان « تيد مكارد » و« آجنز لينلاى » قد التقيا على السفينة، فى طريقهما الى الهند . وكان كل انسان فى الهند يعرف «دافيد مكارد » ، والد «تيد» ، وابن المالى الأمريكى العظيم مكارد ! . أما والد الفتاة ، فكان الحاكم العام لاحدى المقاطعات الشرقية

وقالت الفتاة وهى مستغرقة فى التفكير : **« اننا لانكاد نشعر بالوطن فى أى مكان .. اذا كنا فى الهند ، تحدثنا عن وطن فى مكان آخر ، يتمثل فى انجلترا بالنسبة لى ، وأمريكا بالنسبة لك .. وعندما كنت فى انجلترا ، لم أكف عن التفكير فى الهند!»**

وكذلك كان « تيد » .. وكان يعود الى الهند ـ لأول مرة منذ عشر سنوات ـ ليعمل فى مدرسة أبيه ، بعد أن فرغ من دراسته . ولقد ظل طيلة هذه الاثناء ، يقيم مع جده ، فى المنزل العتيق فى (فيفث أفنيو) ، حيث زاره ابوه منذ عامين .. وتذكر « تيد » ما قاله أبوه اذ ذاك وهما يقفان امام صورة أوليفيا : « لقد كانت امك متكبرة وهى فتاة ، ولكن الكبرياء تلاشت بعد زواجنا ـ لسبب ما ـ وغدت شديدة التواضع واللين » . فسأله تيد : « أهى التى تغيرت أم أنت ؟ » . فأجاب الأب : **« لست أدرى .. ان الهند لا تدع أحدا الا غيرته ! »**

وتذكر « تيد » انه لم يفتقد أمه كثيرا ـ عندما ماتت ـ ولا شعر بغياب أبيه ، اذ كان جده يفيض عليه حنانا ينسيه كل شىء .. وأخذ ـ وهو يقف على الباخرة مع « آجنز » ـ يستعرض الذكريات التى احتفظ بها للهند .. كان الجميع يعطفون عليه بعد موت أمه ، ولكنه لم يعرف فى حياته فتاة ، أحس نحوها بالود ، قبل « آجنز » .. صحيح انه عرف فى صغره طفلة كانت تصغره بثلاث سنوات ، فكان يخجل من أن يلعب معها .. تلك كانت « روثى » ابنة « فوردهام » . ولقد عرف أن أبويها أرسلاها الى مدرسة تابعة للكنيسة فى (أوهايو) بأمريكا ، ولكنه لم يرها قط مذ بارح الهند !

وانتقل ذهنه الى التفكير فى رحلته هذه .. لم يكن الشوق الى ابيه هو المحفز عليها ، وانما كان المحفز هو .. شوقه الى الهند ذاتها ! .. وكانت « هنده »هذه غير « هند آجنز » كما ادرك من حديثها . فلقد تبين بعد ايام قلائل من صداقتهما على الباخرة ، ان من الخير أن لا يتحدثا عن « غاندى » ، او الحركة الوطنية الهندية ، أو أى شيء مما اعتاد « العم داريا » ان يكتب له عنه .. وتذكر كيف كان داريا يفد على دار الارسالية ، وهو — اى تيد — طفلا ، وكيف انه كان يسمعه وهو يناقش أباه فى حدة وعنف . ولقد سأل تيد اباه يوما : « هل العم داريا رجل غير صالح ؟ » ، فأسرع دافيد قائلا : « بل انه جد صالح ، ولكن الأيام التى نجتازها غريبة ، لا يستطيع أحد ان يفهمها .. هناك أمور خاطئة كثيرة ، يحاول الطيبون أن يصلحوها .. وأنا اعتقد أن طريقتى فى الاصلاح هى خير الطرق ، بينما يعتقد عمك داريا ان طرقه هى الأفضل ! »

ولقد كتب اليه العم داريا — عندما علم بتأهبه للعودة الى الهند — يصف اليه الهند كما أصبحت خلال سنى بعاده .. **كانت القرى لا تزال على حالها القديم ، وكان اصلاحها يتطلب سنين طويلة ، بعد الاستقلال .. الاستقلال الذى كان الوطنيون عاكفين على اعداد اسلحته ، والذى استطاع « غاندى » ان يجتذب القرى من عزلتها الى معمعته ! ..** وشعر « تيد » — وهو يستعرض كل هذا فى فكره ، على ظهر الباخرة — بأن الحياة التى كانت ترتقبه ، كانت جديدة عليه رغم انه ألفها فى طفولته . ولكنه لم يعد طفلا ، وانما كان رجلا ، ومن حقه ان يدعم استقلاله الذاتى ، فلا يدع أبوه يتسلط عليه !

* * *

• **وكان** « دافيد مكارد » فى تلك الاثناء فى (بمباى) لحضور المهرجانات التى كانت تعد لاستقبال « امير ويلز » ، ولى عهد انجلترا .. ولم يكن الوقت ملائما لهذه الزيارة ، فقد كانت

الهند تغلى ، وكان « داريا » قد زار دافيد قبل ذلك بشهرين ليرجوه ان ينصح نائب الملك بأن يعمل على ارجاء هذه الزيارة !.. كان داريا ـ منذ خمس سنوات ـ قد انهمك بكل قواه فى الحركة التى كان يتزعمها غاندى ، والتى لم يكن دافيد يقرها.. لقد قال له داريا اذ ذاك : **« أؤكد لك ان الوطنيين لن يقبلوا زيارة الأمير ، فهم لا يزالون ساخطين مذ أجبروا على دخول الحرب العالمية (الأولى) دون رغبتهم .. لسوف يقوم الناس بالشغب فى كل مكان ، وستتعرض حياة الأمير للخطر . كما ان حزب المؤتمر (الكونجرس) سيقاطع المهرجانات ! »**

وكان دافيد يشعر بالقلق ، وهو يرقب حركة « غاندى »، فان حبه للنظام كان يجعله معارضا لها ، لذلك قال بحدة : « انك لتعلم اننى أوافق نائب الملك على ان الهند لم تتأهب بعد للاستقلال .. ولن تظفروا بشىء عن طريق الثورة ، بل يجب أن تثبتوا أولا انكم أهل للحكم الذاتى ! » .. وقفز داريا كأنه عمود من لهب ، وصاح فى صوت يفيض بالسخط : « كيف يصبح قومى أهلا للحكم وهم يتضورون جوعا ، وقد سلبوا خيرات بلادهم ، وغلبوا على امرهم ؟ .. لقد عاش الانجليز هنا سنين طويلة كسادة ، ولكنهم لم يحاولوا ان يفهموا عقولنا او قلوبنا ، وانما كانوا يحكمون بالقوة فقط ..انهم لم يحاولوا قط ان يكسبوا ودنا ، وانما كانوا يعتمدون على مدافعهم !.. لقد فاتت الفرصة يا دافيد ، وسترى سنين مليئة بالكفاح .. والنصر لنا ! »

★ ★ ★

• **وبكر** دافيد الى السرادق الذى أقيم لاستقبال ولى عهد انجلترا ، فى يوم وصوله .. كان الانجليز فى أبهى ثيابهم الرسمية ، وقد جروا وراءهم الموظفين الهنود فى أزيائهم المزركشة . ووقف مع الآلاف التى حشدت فى السرادق ، عند ما أقبل « أمير ويلز » فى صحبة نائب الملك فى موكب

مهيب . وتنهد دافيد ارتياحا حين لاحظ انه لم تكن ثمة اية بادرة توحي بالشغب الموعود .. وفجأة ، سمع رجلا ينادى باسمه ، فالتفت ، واذا داريا يقف وسط جماعة من الهنود . وقال داريا ، والموسيقى تصدح : « املأ عينيك منى ، فلن ترانى الى أمد طويل ! » .. فتساءل فى قلق : « ما الذى اعتزمته يا داريا ؟ » .. وساءل نفسه : من أين أقبل بثوبه القطنى الأبيض الرخيص، بين تلك الأزياء الفخمة ؟.. وهمس داريا فى زهو : « لسوف اعتقل بعد لحظة ! » .. وفعلا ، تقدم منه جنديان ، من الحرس البريطانى ، وامسكا به .. والتفت داريا الى دافيد مبتسما ، ثم سار مع الجنديين وهو رافع الرأس !

وبقى دافيد فى (بمباى) ليستقبل ابنه عند وصوله .. ولمحه عن بعد على ظهر الباخرة — عند وصولها — فلوح اليه بيده .. وكان « تيد » قد ودع « آجنز » فى ذلك الصباح . واذ تجاهلت دعوته لزيارتها فى دار أبيها الحاكم — فى كلكتا — سألها فى ارتباك : « هل آمل ان نلتقى ثانية ؟ » ، فأجابته : « طبعا ! » .. وعاد يسألها : « وهل تسمحين بأن أكتب لك ؟ » .. وكان جوابها : « أرجو أن تفعل ! »

وما ان هبط « تيد » حتى هرع الى أبيه فصافحه فى شوق .. واستقلا عربة الى الفندق ، فأخذ « تيد » يتأمل فى صمت الجموع التى كانت تزخر بها الطرقات .. وراح يتفرس فى الوجوه السمراء ، الوادعة، الأبية ، التى كان العناء يخيم عليها .. **ثم التفت الى أبيه فجأة وقال : « لشد مايدهشنى ان شيئا لم يبذل لاطعام المتسولين وصونهم من الاستجداء ! » .. فقال ابوه : « اظن ان الحال ستظل على ماكانت عليه فى ايام المسيح .. فلا بد من وجود الفقراء ! » .. وخيل لتيد أن لهجة أبيه كانت تنم عن عدم اكتراث ، فاستنكر ذلك ، وعاهد نفسه على ان لا يسمح لعدم الاكتراث بأن يغزو فؤاده ، طالما أقام فى الهند!**

واذ استقرا فى الفندق ، سأل « تيد » أباه عن « داريا » . وحدثه الأب فى انفعال بأن « داريا » انساق لغاندى ، وانتهى الى السجن ، ثم قال : « اننى لاأفقه ما يجرىاليوم فى الهند. هناك جنون عام بدخول السجن ، وشغف بالتضحية والاستشهاد باسم الوطنية .. لقد أصبح داريا فىمثل تهوس غاندى فى تطرفه » .. وطفق دافيد يحط من شأن غاندى ، ثم قال لابنه : « أنصحك بأن تبتعد عنه وعن كل نشاط له !»

ــ كان من الخطل اقامة المهرجانات فى مثلهذه الظروف .. أهو استعراض للأبهة ، او ازدهاء بالسلطان ؟

ــ بل هو عرض للقوة ، فليس ثمة غنى عنها !

وأحس « تيد » بأنه يجب أن يصد أباه من البداية عن أن يفرض عليه آراءه ، فتجلد وقال : « ما أظنه عمل حكيم ، فالناس هنا لا يحفلون بما يصيبهم .. ليس لديهم مايخشون أن يفقدوه ، بل لعلهم لا يخشون الموت ! .. اننى لم أحط تماما بحقائق الأمور ، ولكننى سأزور العم داريا ! »

★ ★ ★



• **وتجاهل** « تيد » المقعد الزرى الذى عرضه عليه «داريا» وجلس الى جواره على الارض فى سجنه ، ينصت اليه وهو يروى كيف شهد ابنهالاصغر ، ثم زوجته ، ثم ابنه الاكبر يموتون بالحمى الصفراء ، ويتركونه وحيدا .. وقرر أن يغدو كاهنا ، فوزع ثروته على اخوته ، وارتدى ثوبا بسيطا ، وراح يتنقل بين القرى على قدميه ..**وقال: « اذا شئت ان تعرف**

الهند يا تيـد ، فاذهب الى القـرى ! » .. ومضى يذكر كيف انه اختلط بالفلاحين ، ودفن أحزانه فى أحزانهم .. « ونسيت موت أهلى لأن مئات الألوف من الفـلاحين يموتون .. رأيت أهل الهند التعساء ، الجوعى ، المعذبين ، وقـد رزحوا تحت جور كبار ملاك الاراضى ، وتخبطوا فى الديون بسبب الضرائب .. ونسيت كل وجودى ، فأصبحت رجلا آخر .. لقد اشتعلت النار فى فؤادى .. واذ ذاك ، التقيت بغاندى ! »

واستطرد قائلا فى حرارة : **« اننى لا أعبد هذا الرجل عبادة عمياء ، بل اننى ابصره على حقيقته ، وانى لأتبعه لانه لا يعمل لنفسه .. ان نبذ متاع الدنيـا هو المحك يا تيد ، فالرجـل الذى ينبذ كل شىء من أجل الغير جدير بالثقة ! »** .. وتفرس تيد فى وجه الرجل ، فلم ير شيئا من الحقـد أو الغضب أو الأسى ، وانما رأى رضى وابتهاجا ، فسـأله : « ما املك يا عم داريا ؟ » .. وكان الجـواب : **« أن أرى قومى أحـرارا ، وأن أراهم قادرين على أن يساعدوا أنفسهم ، وان يملكوا أرضهم ، وأن يختاروا حكومتهم .. ولسوف أراهم كذلك يوما ! »**

وغادر « تيـد » السجن وهو يعجب فى نفسه : لقـد كان يعرف العم داريا جميلا ، ذكيا ، يحب الحيـاة ، ويستمرىء المتع البدنية ، فاذا كل مشاعره الانسانية تتجه اليوم الى الرجل النحيل ، الدميم ، الذى لم يكن يرجو طعاما يختلف عن طعام الفلاح ، والذى اختار لنفسه ثوبا من غزل يده ! .. لقد ولد داريا فى قصر والد غنى ، وها هو ذا الآن فى سجن باختياره ، وفى فقر باختياره ! .. وتحرك فى قلب « تيـد » شىء ما .. لهب واهن ! .. ولكنه لم يكن راغبا فى أن يفحص نفسه فى تلك اللحظة ، فقد كان شابا ، ذا حيـاة مشرقة ، ومستقبل أكثر اشراقا ، تلوح « آجنز » عند أفقه ! ..

ولقد حاول مرتين ان يراها ، ولكنها اعتذرت بأن كل امرىء كان فى شغل بزيارة « أمير ويلز » لـكلكتا .. وكتبت له بأنه

كان من المتوقع أن يثير الوطنيون شغبا ضد الأمير ، وان الحكومة كانت تحاول أن تحبط حركتهم ، حتى لقد ضمت السجون أكثر من ثلاثة آلاف شخص .. وعندما تمت الزيارة، كتبت تقول له : « لقد كانت انتصارا عظيما للامبراطورية البريطانية ! » . واذ ذاك فقط ، سمحت له بزيارتها فى قصر الحكومة بكلكتا ، فكاد يطير اليها .. ولكن ابتهاجه فتر بعض الشيء ، عندما راحت تحدثه عن « غاندى » وعن القائمين بالحركة الوطنية ، فى غطرسة انجليزية .. وحدثها عن داريا ، وكيف وهنت صداقة أبيه لهذا الهندى ، لأنه ناصر غاندى ، فهتفت : « يسرنى أن أسمع أن هذا شعور أبيك » .. فقال : **« لست أدرى ما اذا كان غاندى على حق أو باطل ، ولكن الهند مقبلة على صراع رهيب .. وداريا يقف مع غاندى فى جانب، بينما يقف أبوك وأبى فى جانب آخر .. ولست أدرى أين ينبغى أن أقف يا آجنز ، اذ لا بد لى من وقت أفكر فيه ، ولكن ، هل تذهبين معى أينما ذهبت ؟ .. وهل تحبينني ؟ »**

— ان الحب وحده لا يبت فى الأمر ، فلو اننى تزوجتك ، ثم قدر لك أن تناصر غاندى مثلا ، لفرق هذا بينى وبين الدنيا التى أنتمى اليها تماما .. بينى وبين والدى وأهلى .. ولو انك كنت انجليزيا لما ترددت ، ولكنك أمريكى ، وأنتم معشر الأمريكيين لا تفقهون وجهة نظر الانجليز !

★ ★ ★

• **وعاد** « تيد » الى (بونا) عن طريق الغرب ، ليطوف بالقرى ، استجابة لنصيحة العم داريا ، فرأى بعينه مظاهر البؤس والشقاء ،وقرر أن ينزح للاقامة فى قرية تدعى (فهاى) .. ان يذهب هناك ليعلم وليتعلم .. ليعطى ويأخذ !

وبهت والده عند ما عرف بقراره ، فسأله : « هل يعنى هذا انك عدلت نهائيا عن الزواج ؟ » ، فقال : « لا ، اذا قبلت

آجنز أن تقيم معى فى القرية ! » .. واذ عجز دافيد عن أن يثنى ابنه عن عزمه ، أسلم نفسه لذكريات الماضى ، وما دار بينه وبين أبيه قبل خمسة وعشرين عاما .. على انه قرر أن يستعين بآجنز !

وعندما حان موعد العشاء فى ذلك المساء ، كانت « روثى » ابنة « فوردهام » تجلس بين أبويها الى المائدة التى جلس اليها دافيد وتيد .. كانت قد وصلت الى الهند لفورها بعد ان أتمت دراستها فى امريكا ! .. وعجب تيد اذ رأى الطفلة التى كان يزدريها فى صغره ، قد تحولت الى شابة جميلة ، ملتفة القوام ! .. وما ان أعلن دافيد عزم ابنه على الرحيل الى القرية ، حتى شهقت مسز فوردهام فى دهشة . أما زوجها، فقد قال : « لن ينتهى الصيف حتى نراه بيننا ثانية ، فان الحياة فى القرى لا تطاق ! .. ولست أدرى ما يكون من أمر السلطات ، لا سيما فى الظروف الراهنة .. انها قد ترى فى ذلك انحيازا الى الثوار !» . فقال دافيد : « سأشرح الأمر لنائب الملك ! »

ورحل « تيد » الى (فهاى) ، فبادر دافيد الى الكتابة الى « آجنز » ، وسرعان ماجاءه الرد : « اننى اعجب بتيد ، ولكنى لم أستطع أن اتفاهم معه .. لقد نشأت على ما تربى عليه أية انجليزية فى الهند، فلست أملك شيئا ازاء شعورى بالمسئولية!»

واعجب دافيد بشخصيتها خلال خطابها ،فعاد يكتب اليها، معربا عن تقديره لما كانت تقوم به الامبراطورية البريطانية للسير بالشعب الهندى نحو الاستقلال ، وعن استنكاره لعقوق الشباب الهندى المثقف وزعمائه ! ! .. ولم يقل لها انه كان يشعر بالوحشة مذ فارقه ابنه .. **وما لبث أن تلقى خطابا من « تيد » يصف له فيه بؤس القرية وتضور أهلها ، ويعرب عما كان يشعر به من سعادة وحرية ، قائلا انه كان يتعلم بين الفلاحين أشياء كثيرة ، لا سيما وانهم قد اطمأنوا اليه ، ولم**

يعودوا يخافونه !

وكان يستيقظ فى الصباح المبكر ، فيقيم فصلا للتعليم زهاء ساعتين ، ثم يتوفر على علاج المرضى . اما بعد الظهر ، فكان يحسم الخلافات ، ويرشد الفلاحين فى أمورهم .. ومرت شهور عديدة ، حتى اذا اطمأن الى استقرار حياته ، كتب الى « آجنز » يحاول اقناعها من جديد ، بأن تقبله زوجا .. وجاءه الرد موجزا : **« لست أدرى كيف أنهى اليك النبأ .. لقد وعدت والدك بأن أتزوجه » !**

ولم يكن أبوه قد أشار الى شىء من ذلك .. وراح تيد يتصور موقفه لو انه ظل الى جوار أبيه ، وشهد تطور العلاقات بين الفتاة التى أحبها ، والرجل الذى كان .. أباه !

وفى شهر سبتمبر ، كتب اليه ابوه ينبئه بالزواج !

★ ★ ★

● **ما ان** اطلق سراح داريا ، حتى رحل الى (فهاى) ، اذ كانت أنباء « تيد مكارد » وأعماله فى القرية قد تناهت اليه فى سجنه ! .. ووجد الشاب وقد لوحت الشمس بشرته بسمرة كانت عيناه الزرقاوان تبدوان خلالها كمصباحين فى ظلمة .. فهتف به : « الآن انت هندى حقا .. وكأنى بك قد ولدت فى كشمير التى تمتاز بزرقة عيون ابنائها ! » .. وتحدثا فى ذلك اليوم طويلا .. كان داريا مشوقا الى الكلام بعد طول صمت فى السجن ، وكان تيد يصغى بانتباه ، وكأنه يتلقى دروسا من انسان أسمى منه .. واذ سأله عن مشروعاته ، قال داريا : « ان غاندى مريض فى سجنه ، ولا بد ان يفرجوا عنه قريبا ، ومن ثم فليس لى ان اضع خططا حتى أقابله .. **ان المقاومة بدون عنف تحتاج الى أقصى حكمة ، وبراعة ، واحتمال . ان العنف سهل وبسيط .. انه سيف الاغبياء ، ولا يخلف سوى الفوضى .. اما المضى فى ثورة ايجابية بدون عنف ، فانه امتحان**

عسير للذكاء ! »

ـ وهل غاندى زعيم مطلق ؟

ـ انه كذلك فى الناحية الروحية ، فليس لأحد منا ان يقدم على عمل ما لم يعرف أحاسيس روحه ، اذ أن الموقف يزداد تعقدا فى كل يوم .. ان الأمل فى الحرية يبدو بسيطا ، ولكنه يطلق قوة ليست بالسهلة . ذلك لأن حرية الهند ليست كل شىء ، بل ان هناك حريات اخرى مشتهاة ، فالمسلمون لايقنعون بأن يكونوا هنودا أحرارا ، وانما يبغون ان يكونوا مسلمين احرارا .. وكذلك الهندوكيون ، بل والسيخ .. والاشاعات الخطرة تزحف على الحدود من روسيا ، ممثلة فى وعود عذبة بالاستيلاء على الأرض بالقوة واعطائها للناس .. وبينما يصر غاندى على عدم العنف ، يتهامس الناس بحديث القوة .. أن أملنا الاوحد ينحصر فى غاندى !

وفى اليوم التالى لرحيل داريا ، تلقى تيد خطابا من «روثى» قالت فيه : **« لشد ما احسدك .. اننى أحب الحياة فى القرية، وأحب اطفال الهنود ،وفى وسعى أن انظفهم ،وأن اعلم امهاتهم» ..**

وتوالت خطاباتها ، فأخذ ـ على مر الشهور ـ يرتاح اليها ، ويغتبط بان يحدث الفتاة عن اعماله ، فيصف لها جولاته اليومية ، وقراءاته للفلاحين من « البهاجافاد جيتا » ـ كتاب البوذيين المقدس ـ والقرآن ، والانجيل ، والتوراة .. وكيف كانوا يتناقشون فى « الله » الواحد ، على اختلاف الديانات المرشدة اليه. وهكذا اتصلت الرسائل بينهما ، الى ان فوجىء تيد ذات يوم ـ وقد قضى فى القرية اكثر من عام ـ بخطاب من روثى تقول فيه : « دعنى آتى الى القرية ،وأصبح زوجة لك .. لست أطمع فى شىء ، ولست أسالك ان تحبنى ، ولكننى .. أحبك » !

الجزء الثالث

• **تطلعت** «روثى» الى الحسناء السمراء ، التى كانت اولى

ثمار زواجها بتيد ، وقالت : « ليفى .. اننى أخجل من أن أنبىء أباك ! » .. وكان خليقا بالفتاة ان تكون – وقد بلغت السادسة عشرة – فى (اوهايو) ، تتلقى العلم ، ولكن أبويها استبقياها بعد ان رحل اخوتها الثلاثة الى امريكا .. ونظرت الفتاة الى أمها ، ثم قالت : « ولكننى لا أخشى أبى ! » .. كانت رائعة فى جلدها واعتزازها بنفسها ، لا سيما بعد ان عانت الكثير من اعراض الفتيات الانجليزيات عنها ، فى العام الذى قضته بالمدرسة الداخلية ! .. وكانت توقن من ان أمها ترى فى الهنود اخوة من البشر ، ومن ان اباها كان يؤمن بأن الهنود يجب أن يلقوا ما يلقاه البيض من معاملة ! .. وكان الفارق الوحيد بين أمها وأبيها ، هو أن « تيد » كان – فى معاملته للهنود – حريصا ، حذرا !

ولم تشأ ان تدع أمها تثبط من عزيمتها ، رغم انها كانت – فى قرارة نفسها – فى جزع مما جرى لها ، فلقد احبت « جاتين » دون ان تفطن !..

وكان الشاب الهندى قد حصل على أرقى درجة فى كلية الطب بجامعة مكارد – فى (بونا) – فاستدعاه أبوها للعمل معه فى المصح الصغير والمستوصف اللذين اقامهما فى (فهاى).. ولقد سمعت « ليفى » اباها يمتدحه ، ويعلق عليه آماله فى ان يخلفه فى الاشراف على مشروع تحسين القرية ، وان ينشره فى الولاية بأسرها ، بل وفى الهند كلها . فان الحكومة الهندية – بعد الاستقلال – كانت تعنى بالمراكز التعليمية والصحية الشبيهة بما أنشأ « تيد مكارد » فى (فهاى) !

ومع ذلك فان « ليفى » لم تكن تتوقع ان تشغف بجاتين حبا . فلما استوثقت من انه هو الآخر قد احبها ، جاءت الى امها تنشد رأيها !

وعادت الفتاة تقول : « ان ابى خليق بان يوافق على زواجى من جاتين، فانه لايفتأ يقول انه فتى رائع! » .. فقالت

الام « ولكن .. ولكنى لا ارى من الصواب يا ليفى ان تتزوج امريكية بيضاء من هنــدى ! » .. واذ ذاك صاحت الفتــاة : « كأنى بك تعتبرينه من المنبوذين ! » . وبادرت الأم مجيبة : « ما أحب ان تقولى هذا بعد الذى فعله ابوك من اجل المنبوذين وبعد ان آوى غاندى فى داره فتاة منهم ! » .. ولـــكن الجدال لم يثن « ليفى » عن غايتها .. كانت قد ورثت عن آل « مكارد » عنادهم وصلابة رأيهم ، فلم تلبث ان قالت : « لا حاجة بى الى ان تخبرى أبى ، فسأتولى وجاتين ذلك ! » **.. فتأوهت الأم وقالت : « ان هذا كفيل بان يقضى عليه ! .. انه يحبك اكثر مما يحب اخوتك مجتمعين !.. ما كنت احسب ان شيئا من هذا يحدث، فبقدر ما أحببت الهند..»؛ وقاطعتها الفتاة قائلة : « بقد ما احببت الهند ، فانك لم تحبى الهنود ! »**

وتنهدت « روث » فى قنوط ، وقد تبينت ان الكلام لم يعد يجدى ، بينما انطلقت ليفى تقول : « ان جاتين طبيب رائع ، وقد جاء الى هنا لأنه يعتقد بصواب أعمال ابى .. ان العم داريا يقول انه سيصبح من اعظم رجال الهنــد ! » . وغادرت الفتاة المكان ، فأخلدت روث الى التفكير .. كانت نعــرة العنصر الأبيض لا تزال فى دمائهــا ، فلم يكن بوسعهــا ان تدع ابنتها تنحدر الى العنصر الاسود !

وكان « تيــد » فى غــرفة مكتبــه يفكر فى حاله . . كانت (فهاى) قد أصبحت موطنه الأوحد ، اذ انه لم يكن ليطيق العودة الى امــريكا بعد ان اصبح أبوه و « آجنــز » ــ التى أحبها من قبل ــ يعمران الدار القائمة فى (فيفث افنيـــو) بنيويورك ، منذ وفاة مكارد الأكبر ! .. آه ، لو انه كان هو الذى تزوج من (آجنز) لتغير كل مجرى حياته !..

وفيما كان تيــد مستغرقا فى افكاره ، ســمع طرقات على الباب ، اعقبها صوت ابنته تقول فى لهجة هندوســتانية

صحيحة : « هل تأذن لنا يا ابت ! » .. **واجفل اذ رآها بصحبة « جاتين » ، فقد كان على علم بما بينهما . فما كان لسر ان يخفى عن أحد فى (فهاى) ، لاسيما وقد أصبح القوم يرونها معا فى كثير من الاحيان !.. ولم يكن تيد قد اكترث فى البداية ، اذ انه لم يتصور أن تنسى ليفى أصلها الامريكى ، رغم انها نشأت فى قرية هندية ! ..** فضلا عن ان جاتين كان من أسرة هندوكية عريقة ، وقد نشأ فى (بمباى) حيث كانت غطرسة الانجليز على أشدها ، ومن ثم فقد اعتاد ان لا يتطلع الى ما ليس من حقه ان يطمع فيه !

وسأل تيد ابنته ، وهو يتأملها فى « الساری » الذى كانت تفضله على الثياب الغربية : « ما الذى ستنتعلينه حين تذهبين الى امريكا ، حيث لا يباح ارتداء السارى فى المدرسة ؟ » فأجابت ، وهى ترمق جاتين : « لست راغبة فى الذهاب الى امريكا ! » .. وسعل الشاب الهندى ثم قال: « اننا فى مأزق يا سيدى .. لقد وقعنا فى الحب ، ونريد ان نتزوج ! » .. وتشجع جاتين اذ رأى الأب صامتا ، وقال : « لم يكن الأمر بمحض ارادتنا ، وانما هو النتيجة المحتومة للتعاليم التى تلقيناها منذ طفولتنا .. لقد علمتنا انت ان يحب كل منا الآخر ، كما انك علمت ابنتك ان كل البشر سواء ، ومن حقنا ان نفخر بأننا ثمرة كل الجهود التى بذلت فى الماضى ! » .. **وأحس تيد - وهو يرى الطابع الهندى على كل سمة من سمات جاتين - بصرخة مدوية تنبعث فى اعماقه : « لا ، لن أهب أحب أبنائى للهند ! » .. وعندما تكلم ، كان رفضه موجزا ، حاسما !**

ولم يكن من حديث بين تيد وروث ، عندما خلا كل منهما الى الآخر ، سوى هذه المشكلة .. وسألته زوجته عما اعتزمه ، فقال : « سنبحر على اول باخرة تغادر بمباى ..

وسنذهب الى امريكا ، حيث نلحق ليفى بكلية للبنات ! »
.. وراح يذرع الحجرة فى ارتقاب تعليق من روث ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة ، فتساءل فى صبر نافد : « هل تخبرينها بذلك ؟ » . . فأجابته وهى منكسة الرأس : « بل يحسن أن تخبرها أنت ! »

وجاهر الفتاة ـ فى ذلك المساء ـ بما اعتزمه ، وقلبه موزع بين القسوة واللين .. وتطلعت اليه ليفى بعينين جامدتين ، ثم اسرعت تغادره ، فلم يستوقفها اذ ذاك فقد كان يدرك انها تلقت صدمة ، وان من حقها ان تخلو الى نفسها لتروضها على تحملها !.. وحاول ان يغالب أفكاره ، بأن راح يداعب ابنته الصغرى ، ثم اجلسها على ركبتيه قائلا : « تعالى احدثك عن أمريكا .. انها بلدك ، اما الهند فليست وطنك الحقيقى! »

★ ★ ★

• **وانصرف** تيد خلال الأسابيع القلائل التالية ، الى وضع النظم التى يسير عليها العمل بعد رحيله .. وكان سعيدا بهذه المشاغل لانها لم تدع له وقتا كى يواجه نفسه ويتعرف ما اذا كان مخطئا أم مصيبا . . كان يشعر بأن ثمة شيئا متأصلا فى أعماقه ، يملى عليه القرارات التى كان يتخذها كأب .. لماذا كان عقله ـ بل وبدنه ـ يثوران ضد الحقيقة الواقعة المتمثلة فى أن ليفى كانت تريد الزواج من جاتين ؟ .. انه لم يكن يدرى لذلك جوابا ، ولكنه كان بالغ القلق ، وهو يرى ليفى تجوس خلال الدار فى صمت وقور رزين !

وفى اليوم الأخير ، استدعى جاتين وانبأه بانه يكل اليه ادارة المنشأة الطبية ، فقال الشاب : «لسوف نفتقدك!» . واذ ذاك قال تيد : « لقد كنت جد مخلص لى .. ان ليفى صغيرة ، وكان بوسعك ان تثير مشاعرها الى الدرجة التى

لم يعد لها عندها سلطان على تلك المشاعر ، ولكنك كنت كريما ، قويا ، فتركتها تشعر بأن من الواجب أن تنسى ميلها الصبيانى نحوك . واعتقد ان من واجبى ان اعتذر لك لأن الأمر كله ترتب على خطأ منى .. اننى أرى – اذا شئت أن أكون أمينا مع نفسى – أن ثمة سببا آخر لهذا الفراق ! »

– اننى اقدر موقفك ، فمن الطبيعى ان يرغب الآباء فى ان يزوجوا بناتهم من نفس عنصرهم . . وليس من حقى ان أعارض ذلك .. ولكننى وابنتك كنا نتبع قدرا كتب علينا .. لقد كتب علينا منذ مولدنا ان يحب كل منا الآخر ، وان لا يقوم بيننا زواج قط .. وانى لأتقبل هذا القضاء راضيا !

– قد لا يكون جديرا بى – كمسيحى – ان اخضع لما تملكنى من مشاعر .. كنت اظن اننى اسلمت حياتى لله، ولكن .. الظاهر اننى لم أفعل !

فابتسم جاتين قائلا : « ماكنت لأحب ان تكون ليفى قربانا تضحى به من أجل دينك » .. فقال تيد: **« ليست ليفى هى القربان ، بل أنا .. كان خليقا بى ان أمضى بمعنى الحب الى أقصاه ، ولكنى اشعر باننى فشلت .. لست اقوى على مواجهة المعنى المطلق أو على قبوله ! .. انك لتجعلنى أبدو ضئيلا فى نظر نفسى ! »**

وفى ذلك المساء ، زارت ليفى حبيبها ، فقضيا فترة يتهامسان .. وضمها الشاب اليه لحظة ثم أقصاها عنه ، فتعلقت به ، ولكنه دفعها برفق الى الباب ، وهمس : **« لقد حانت النهاية ! .. ان ما كتب لنا ، لا يمكن أن ينتزع منا ، وما كتب علينا لا يمكن ان يمحى عنا .. وداعا ! »** ، ثم اغلق الباب خلفها .. وسمعها تبكى وهى مستندة الى الجدار الخارجى ، فانخرط هو الآخر فى البكاء ، ولكنه لم



يسمح لعواطفه بأن تتغلب عليه !

وهكذا ظل العاشقان برهة ، كل وراء أحد جانبى الباب ، يحاولان ان يمحوا مرارة الأسى بفيض من الدموع

* * *

• **وقف** تيد يرقب معالم (بمباى) ، والسفينة تنأى عنها . . ترى هل لن يقدر له ان يرى هذا الشاطىء ثانية ؟ .. هل كتب عليه ان يغادر الهند الى الأبد ، كما فعل أبوه ؟ .. ألا يشعر بأن شيئا من فضائله ومقومات حياته ، قد غاب عنه ؟ . . ولم يدر جوابا لشىء من ذلك . وفجأة ، شعر بيد تلمس ذراعه ، فاجفل والتفت ، واذا روث الى جواره ، فقال : « لقد خرجنا بليفى سالمة من الهند ! » . . واجابته روث : « ربما ! » . ولم يقو على ان يسألها عما اذا كانت ترتاب فى ذلك ، فقد أحس بأنه مكدود الجسم ، مبدد النفس ، مشتت البال .. أحس بالغربة اذ بارح (فهاى) !

وانحدرت الشمس وراء الأفق ، وسرت العتمة فى السماء واخذت تخيم على الكون . . وهبت نسمة محملة بالرطوبة والبرودة ، فقال لزوجته وهو شارد الفكر : « تعالى ! . . . لم يعد لنا شىء هنا .. فلنهبط ! »

إقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب من قبل ، الكتب الشائقة التالية : آراء جريئة فى السياسة . كيف نجحوا فى الحياة . الحياة فى موسكو . مراهق . آلهة ومقابر وعلماء . الألمان ، شعبا وعباقرة . مستقبل زوجك فى يدك . التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر . أقنعة الحب السبعة . فى داخل افريقيا . من فرعون الى فاروق . كفاحى (لسومرست موم) . فى داخل مراكش . خفايا العلوم الفرعونية . قناة السويس . دزرائيلى . فى داخل الجزائر . مدينة تذل طاغية . عالم الغد . رابعة العدوية . البرت اينشتين . أخلاق أهل مصر

وهاك اليوم كتابا عن الجمال :



تلخيص : ثابت أمين

الكتاب الذى يرفه وطأة القيظ !

• عندما تفتح وعى الانســان لوجوده ، دبت فى أعماقه بذرة الاحساس بالجمال ، وبالفن معا ٠٠ فالفن هو تجميـل الطبيعة !٠٠ وقد اقترن الجمال فى ذهن الرجل بالمخلوق الذى أنجبه ، والذى عنى بأن يسرى عنه عناء الحياة ، وأن يكفل له بقاء النوع ٠٠ ومن ثم راح الرجل يبحث عن الأنثى الجميلة ، وراحت الأنثى تبحث عن الجمـال الذى يجذب الرجل اليهـا ٠٠ والكتاب الذى يقدمه لك « كتابى » فيما يلى ، بحث شامل – بل حديث ممتع – عن تاريخ الجمـال وفنون التجميل منذ أقدم عصور التاريخ ٠٠ فهـو يروى لك – فى أسلوب قصصى ممتع – كيف بدأ جمال المرأة بالفاتنة المصرية « نفرتيتى » ، وكيف دار مع العصور حتى انتهى بأن عادت « نفرتيتى » مثال الجمال المشتهى ٠٠ ثم ينتقل الكتاب الى الحديث عن أنواع الجمـال ، المثير منها ، والروحى ، والكلاسيكى ، والخارق للطبيعة ، الخ ٠٠ فلأدعك تكتشف بنفسك « مفاتن » هذا الكتاب ٠٠ فليس أمتع من ان تعيش مع الجمال فترة ، فى قيظ شهر أغسطس المرهق !

الجمال المصرى : جمال غامض لايدركه العقل !

• **يتجسم** جمال المرأة – كمـا كانت مصر تراه قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين – فى أجمل تحفة فنيـة فى الوجود . . فى تمثال رأس نفرتيتى ، الملكة ذات القسمات المهيبة ، والنظرة المليئة بالغموض والاسرار . ولعل اسمها هو أنسب الأسمـاء لها ، اذ انه يعنى : « أقبلت الجميلة » !.. وقـد كانت – من جميع الاعتبارات – أهلا للزواج من «اخناتون» ، الثائر المصرى الاول ، الذى ألغى الآلهة القدامى ، واحل محلهم عبادة الشمس – مانحة الحياة – وجعل من (تل العمارنة) مدينـة للزهور والفكر والجمال !

ولعل منبع الالهام فى كل هذا الاتجاه الى الحسن ، كان راجعا



الى وجود ((نفرتيتى)) بالذات .. وما كان لغير نابغة عبقرى ان ينحت مثل هذا الخط الممتد من الجفن الأسفل ، على حافة الخد ، الى الفم ذى الشفتين المكتنزتين، المطبقتين !.. وكأنما التمثال لحم لايزال دافئا، ناعما ينبض بالحياة !..

ان أية امـرأة تعيش في يومنا هذا لتشتهى هاتين العينين الساجيتين ، والأنف الحاد والشفتين البديعتين ، والوجه المعبر عن رقة احساس متناهية !

ولو اننا رجعنا القهقرى الى حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، لوجدنا صورة لأنثى مصرية أخرى ، محفورة على الحجر . . انها « نفرت » ثانية ، عاشت فى الأسرة الرابعة ، وامتازت سيماؤها بمسحة من « البورجوازية » الواقعية . . ووجهها ينم عن شهوة ، وعن اعتزاز بجماله، وعن تعود للحياة المترفة، واستمراء لها .. اما الشفتان فمكتنزتان، بل سميكتان ، وقد صيغ قوس كيوبيد بجلاء على الشفة العليا.. والأنف مستقيم، والشعر مستعار.. واليد تشهد بالعناية التى بذلت لتجميلها!

حسان مصر عرفن كل فنون الزينة

• **ويحفل** تاريخ مصر القديم بالأدلة على ان المرأة المصرية أدركت قيمة ابداء جمالها ، فصبغت شعرها، وجملت عينيها، واستعملت العطور ، واستغلت فنون الزينة والتجمل أكمل استغلال .. ولقد نبع الفن الأصيل على ضفاف النيل ، وما

الفن الا تجميل الواقع . وقد عمدت المرأة المصرية الى تجميل ذاتها بكل الوسائل المعروفة الآن، ومارست رقصا ايقاعيا اقرب ما يكون الى الحركات الرياضية ، فلان عودها .. وقد ورد — فى أوراق البردى — فى وصف زوجة تحتمس الأول : **((كانت كالجوهرة فى جمالها ، وكانت الحجرة التى ترقد فيها ، أشبه بحافظة للجوهرة .. ومن البرونز الأسود والابنوس والاخشاب الشذية كانت زينة القصر .. وكان سريرها على شكل أسد ، وعطور بلاد (البنط) الذكية تملأ جو مخدعها))**

وقد ذكر « اميل رايخ » — الحجة فى تاريخ الفراعنة — ان ثياب الاناث فى عهد الدولة القديمة كانت عبارة عن مئزر يلف حول الخصر، ثم أضيف اليه مئزر آخر فى عهد الدولة الوسطى، ثم ستر الثديان فى عهد الدولة الحديثة .. ويصف «ارمان» و « ماسبيرو » المئزر بأنه كان بسيطا ، بدون ثنيات ، ضيقا محبوكا يبرز كل تفصيلات الجسم، وينسدل من تحت الثديين الى الكعبين ، ويصنع من قماش شفاف ! . . لا فرق فى ذلك بين سيدة رفيعة القدر وخادم ، ولا بين أم وابنة !

ولقد اهتمت المصرية — منذ أقدم العصور — بالجواهر والاحجار النفيسة والحلى .. وبرع الصناع فى ابتكار الأشكال للقروط (الحلقان) والقلائد والاساور و«الخلاخيل» . واستنبطوا الزخارف ، وطعموا الاحجار الكريمة بعروق الذهب . . **وقد وجد فى مقبرة ((توتو)) — زوجة الكاتب ((آنى)) — مرايا من البرونز ، وأمشاط من العاج ، وعاقصان للشعر ، ومعاجين و ((كوزماتيك)) ، وفرجون لنشر الأصباغ على الجفون . .** والأعجب من هذا ان وجدت صورة سيدة زودت شعرها المستعار بأنبوب ذى فتحة دقيقة ، وقد ملىء بالعطر ليغذى به الشعر بدون انقطاع . ولقد عرفت المصريات قديما قلنسوات الشعر المستعار ، كما عرفن سر الاحتفاظ بلون الشعر، وعلاج الصلع ، ووقف نمو الشعيرات الزائدة فى الوجه وثنايا الجسم!

الجمال عند المرأة الاغريقيـة

• **يقول** شيشيرون ان الفنان زيوكيس ، أبدع رسم لوحته «هيلين طروادة » ، لانه أتى بخمس فتيات استغل اجمل ما فى كل منهن كنمـوذج لها : فالذراعان من واحـدة ، والكتفان من اخرى ، والأنف من ثالثة، وهكذا حتى استطاع تصوير الجمال المثالى فى واحدة !.. ولعل الفنــان اليونانى التقط الفكرة عن قدماء المصريين ، على انه أوجد قواعد لتناسب جسم المرأة . فطول الجسم يعـادل طول الرأس سبع مرات ونصف المرة ، وطول القدم سدس طول القامة والرأس .. وقد ثبت ان هذه المقاييس تنطبق على كثير من التماثيل والصور الفرعونية !

وقد اهتمت المرأة اليونانية منـذ اقدم العصور بشعرها ، فكانت تضخمـه بزيوت زكية الرائحـة ، وتتركه مرسـلا او تعقصه فى عقدة واحدة فى مؤخرة الرأس . وكانت اليونانية — فى عصر بركليس — تغسل شعرها بنوع من الصابون يخفف من لونه ، ثم تدلكه بدهن العنز ونتاج حريق خشب الزان والزهور الصفراء ، وتتركه مسترسلا على كتفيها ليجف

وكان من صفات جمال وجه اليونانية ان يستقيم الأنف مع الجبهة ، بلا انكسار عند الحاجبين . وأحسن مثال لهذا الجمال يبرز فى وجه « فينوس ميلو » فى متحف اللوفر بباريس . فالتقاطيع واضحة، والرقبة طويلة قوية، والكتفان منسجمتان متناسقتان ، والثديان مستديران ممتلئـان ، والعود ملىء . وكانت اليونانية تفخر بامتلاء ما تحت خصرها كما يتضح ذلك فى تمثال « فينوس كاليبيج » او « افروديت » . وقـد ذكر «هوميروس» ـفى «الاوديسا»ـ ان اليونانية كانت تعنى بازالة جميع البقع والشامات من جسمها ، وكانت تدلـكه بالزيوت والطيب لتصون ليونته ، كمـا كانت تتحلى بقلائد الذهب والمجوهرات لتبرز محاسن صدرها . ولم تغفل استعمـال

المرايا وتلوين شفتيها !

تقف عارية لتقنع القضاة ببراءتها !

• **وكانت** المرأة الاغريقية تفخر بجمال جسمها ، ولا تخجل من عرضه للانظار !.. وقد جاء فى «الالياذة» ان « مينيلوس » أوشك ان يقتل «هيلين» لخيانتها ، ولكن السيف جمد فى يمينه حين كشفت له عن صدرها ! . ولعلك سمعت قصة الغانية «بيرين» التى اتهمت بافساد شباب (أثينا) ، وقدمت للمحاكمة .. **وعندما أدرك محاميها ان قضاتها يوشكون ان يدينوها ، مزق عنها رداءها ، فبدت عارية !.. واذ ذاك، وجم القضاة ، وبهروا ، ثم قضوا ببراءتها بحجة ان من تمتلك مثل هذا الجسم الكامل الجمال، لايمكن ان ترتكب مثل تلك الذنوب التى اتهمت بها !**

وكان الشعب جميعا يراها فى الاحتفالات بعيد «بوزيدون»، وهى تخلع ملابسها جميعا، ثم تلقى بنفسها الى الماء لتسبح.. هذا المنظر هو الذى اوحى الى الفنان « بيلز » بتمثاله الرائع « افروديت تشرق من البحر »

ولقد كان المجتمع النسوى ينقسم عند الاغريق الى طبقتين: الزوجات ــ وكن محصنات ، حبيسات الخدور ــ والغوانى اللائى كن يظهرن فى كل الاوساط . ومعظم اللائى تحدث عنهن التاريخ ــ فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ــ من هذه الطبقة . ومنهن الشاعرة الاديبة «سافو»، التى تفردت بعشق بنات جنسها ، وكانت تعتقد ان مثل تلك العلاقة لايمكن ان تنفصم عراها ، وقد وصفت الحب المجرد بأشعار كانت تفيض وتتفجر بالهيام . وكانت تؤمن بأن الحب مكتوب على المرأة ، ولكن لم يعرف عنها انها مالت الى رجل، وانما جمعت بين حب الجمال فى بنات جنسها وحب الادب والشعر

ولقد رانت على احلام اليونانيين القدامى فلسفة الجمال

المثالى ، حتى انها طغت على كل ميادين حياتهم . وقد ورثت المرأة اليونانية الاهتمام بجمال جسمها وابراز مفاتنها ، عن تلك الفلسفة !

المرأة الرومانية بين الفضيلة والرذيلة

• **كانت** المرأة — فى باكورة عهد الدولة الرومانية — مجرد دمية يتلهى بها الرجل فى البيت. وكان سلطان الأب على ابنته مطلقا ، كما كانت كل من الزوجة والابنة بمثابة الأمة أو الجارية . ومع ذلك فقد كان الرومانيون يقدرون نساءهم ، ويقدرون فيهن العفة قبل الجمال .. وكم فى تاريخهم من امثال قصة « لوكريشيا » زوجة « تاركينيوس كولاتنيوس » . فقد ثار الجدل يوما بين هذا الأمير وابناء الملك ، اذ راح كل منهم يباهى الآخرين بعفة زوجته . وانتهى بهم الأمر الى ان اتفقوا على ان يتجسسوا جميعا على زوجاتهم .. فوجدوا انزوجات ابناء الملك لم يكن يحفلن بالفضيلة . وعندما تفقدوا حال «لوكريشيا» ، ألفوها تجلس الى مغزلها تحف بها وصيفاتها . **ودبت فى صدر أحد ابناء الملك — وكان يدعى «سيكستس» — الغيرة من ان تكون ثمة زوجة بهذه العفة ، فتسلل فى اليوم التالى الى مخدعها، وسطا على عرضها . فأنبأت زوجها واباها بما جرى، وحملتهما على ان يقسما بأن ينتقما لها،ثم انتحرت. وكان من جراء ذلك ان ثار الشعب وخلع الملك !**

ويقول « بلوتارخ » ان الفتاة التى تفرط فى عرضها كانت تدفن حية فى احتفال يشهده الشعب ويشرف عليه الكهنة !

ولما نشبت الحرب «البونية» — فى القرن الثالث قبل الميلاد — جاءت فى اعقابها حريات جديدة للمرأة ، فبدأت تستشعر بأنوثتها ، وان كانت الدولة قد عارضت — فى اول الأمر — ان ترتدى المرأة الملابس الزاهية الألوان أو أن تتحلى بالجواهر والحلى الغالية ، أو أن ترى فى مركبة تجرها الخيل فى منطقة

تبعد عن المدينة بأكثر من فرسخ!.. ولكن نساء (روما) تمردن على القانون . ومنذ ذلك الحين بدأن يستعملن المساحيق والاصباغ وعقاقير تنظيف الاسنان والكحل وخضاب الحواجب، حتى لقد أصبحت روما تستورد ما كانت قيمته تبلغ ملايين القطع الذهبية ، من عطور الشرق وجواهره واحجاره الكريمة!

يحسبن السنين بعدد الأزواج

• **وراح** الادباء يسخرون بهذه البدع التى افتتنت بها نساء روما الثريات ، وقد جاء باحدى القصائد :

« راحت تجدد وجهها فى الشهر مرة .. فتلطخه بالشحم مرة أثر مرة ..

« فاذا التقط الزوج قبلة المساء .. قبل الدهن وتعثر فى الغراء » !

واهتمت الرومانية اهتماما شديدا بشعرها، فكانت تصبغه بالحناء ، ولم تغفل استعمال قضبان رفيعة من الصلب الساخن لتجعيده ، وتزيين جبينها بخصلاته . وكانت تكسو ثدييها بأقماع من الذهب الخالص ، وهى عادة اختصت بها المرأة الرومانية .. وكانت الى هذا ، تسرف فى استخدام العطور لتدليك جسدها بعد الاستحمام، كما كانت تستعمل مسحوق الارز لاخفاء تجاعيد الوجه ، وعرف عن « بوبايا » ـ زوجة نيرون ـ انها ابتكرت لنفسها عجينة خاصة لازالة التجاعيد ، كانت تعدها بلبن الأتان (الحمارة) !

أما الملابس فكانت ضيقة وبسيطة ، ولكنها كانت فاضحة ، لاتستر جسد المرأة ولا تصون عفتها ، فكانت وهى كاسية ، لاتستطيع ان تنكر انها عارية ..! وقد ذكر « هوراس » انك تستطيع ان تقدر مفاتنها بنظرة عابرة . وقد رأى القرنان الاخيران فى حياة العهد الجمهورى فى الدولة الرومانية ، فضائح ومباذل وشذوذا تبذلت خلالها المرأة الرومانية الى

اقصى حدود التبذل .. ولعل السبب الرئيسى فى ضعف اخلاق الرومان ، ان الروابط الزوجية تفككت الى درجة مروعة ، ولم تتخذ الدولة أية خطوة لعلاج الحال . وقد علق سنيكا الحكيم على هذه الفوضى بقوله : **((لم تكن السيدات يحسبن السنين بعدد القناصل الذين يتولون الحكم ، وانما كن يحسبنها بعدد أزواجهن)) !**

ويحدثنا التاريخ عن الامبراطورة ((مسالينا)) حفيدة ((اوكتافيا))، أخت الامبراطور ((أوغسطس)).. كانت فتاة فى عمر الزهور حين زفت الى الامبراطور ((كلوديوس)) ، ولكنها ــ رغم صغر سنها ــ كشفت عن طبيعة نارية ، حتى ان من العسير حصر الدسائس والدناءات التى غاصت فيها لترضى رغبات جسمها وتطفىء السعير الذى لم يكن يهدأ !.. وروى انها كانت تقابل ٢٥ عشيقا فى الليلة الواحدة !

امرأة تتحدى سلطان امبراطور !

• **وفى** هذا الجو الداعر ، لم يكن من المستغرب ان يلقى ٢٨ ــ من الأباطرة الخمسة والخمسين الذين حكموا الامبراطورية ــ حتفهم غيلة ، وان ينتحر ثلاثة آخرون . . وكان السبب الرئيسى يتمثل فى الخيانات الزوجية المتبادلة بين الأباطرة وزوجاتهم ، فكانت الزوجات والعشيقات يتبارين فى قتل الأباطرة ، وكان هؤلاء يلجأون الى القتل للتخلص من زوجاتهم وعشيقاتهم !

كانت الرذيلة وانعدام الخلق شيمة غالبية نساء الرومان ، ولكن العز والترف كانا السبب الاساسى فى انحدار النساء ، فقد اتجهت المرأة بكليتها الى تجميل ذاتها ، وبالتالى الى عرض هذا الجمال على من يتذوقون !.. **وليس معنى هذا كله انتفاء الفضيلة أو انعدامها . . وقد روى ((بلوتارخ)) ان الثائر ((سابينوس)) ــ الذى أراد اسقاط حكومة الامبراطور**

فاسبازيان ـ اختفى عندما اخفقت المؤامرة ، وبعث رسولا الى زوجته بانه تناول السم ومات ، ففقدت المرأة المخلصة وعيها ومكثت أياما بلاطعام، لاتكاد تتنفس، حزناوكمدا على قرينها!..
ولما خاف عليها الموت، بعث اليها بمن نصحها بأن تواصل تمثيل الحداد حتى يستطيع ان يتصل بها. وفعلا استطاعا ان يتصلا ويلتقيا ، وان يعيشا فى جب تحت الأرض ـ بعيدا عن العيون ـ حتى أنجبت له توأمين ، فانكشف امرها ، وامر الامبراطور بأن تبتر رأسها بفأس ، فقبلت مصيرها راضية ، وهى تقوله له : « ان الحياة فى ظلمات الجب أحلى من رؤيتك على العرش ! »

وهنا نترك المرأة الرومانية التى مزجت العفة بالعهر ، والفضيلة بالرذيلة ، والجشع والشبق بالروحانية والتبتل .. وكان حب الجمال ـ فى خلال ذلك كله هو السلطان المسيطر !

المرأة الحامل مثال للجمال فى العصور الوسطى

• **وفى** العصور الوسطى ، آمن الرجال بأن الجمال رسول السعادة ، فكانت المرأة موضع تقدير . وبالرغم من اختلاف المقاييس ، الا ان التقدير العام للجمال تركز فى أن تكون المرأة شقراء ، ذات شعر مرسل تحبكه «بتوكة» ذهبية ، وان تكون ذات بشرة شفافة يشيع فيها لون الورد الخفيف .. بيضاوية الوجه ، عريضة الجبين عاليته ، زرقاء العينين ، دقيقة الفم ، لا تشوب أسنانها شائبة .. ذات شفتين حمراوين مليئتين ، وغمازة فى الذقن .. دقيقة الذقن ، عاجية العنق ، صغيرة الاذنين ، رشيقة القوام ، ملتفة الذراعين ، متناسقة الكتفين ، مكورة الثديين مشدودتهما ، ناعمة اليدين ، طويلة الساقين ، دقيقة القدمين

وكانت حسناء العصور الوسطى تهتم بالمحافظة على جمالها وسمعتها .. ومن ثم كانت الزيجات تعقد فى سن مبكرة ، حتى لقد كان العروسان يزفان ـ فى كثير من الاحوال ـ وهما لما

يبلغا الثالثة عشرة !

ومع ذلك ، فان تلك العصور لم تخل من ميل الى العرى ، فكان من المباح للنساء ان يغتسلن وهن عاريات فى الحمامات العامة ، وكانت الشابات يستقبلن ضيوفهن وهن عاريات فى الفراش ! .. وقد امرت مدام « دى ليل دايتى » وصيفاتها الثلاثمائة بالرقص عاريات أمام جمهور من اصدقائها ، على أمل تزويجهن . وانتشر السفاح حتى اصبح أمرا عاديا . كما اشتركت النساء مع الرجال فى كل نشاطهم ، حتى ان كثيرات تطوعن كمجندات فى الحروب الصليبية .. وكانت أغلب نساء الطبقة الراقية يشتركن فى حفلات الصيد .. ومع ذلك ، فقد كان للرجل ان يضرب زوجته ضربا معقولا ، فى حين انها كانت ــ فى غيابه ــ سيدة البيت المسيطرة على كل كبيرة او صغيرة !

ويقول « هافلوك اليس » ان الجمال المثالى فى اوربا الشمالية ــ قبيل عصر النهضة ــ كان يتمثل فى المرأة الحامل ، وقد برز بطنها وانحدر راسها الى الخلف . وكانت الحوامل يستدعين المصورين لرسمهن وهن فى هذه الحالة! .. والمتاحف مليئة بهذه اللوحات !

المرأة الانجليزية أشبه ب « العرسة » !

• **وعندما** بدا التعليم ينتشر فى اوربا ،اثار مشاكل عديدة . فقد ادى اختلاط الجنسين الى انتشار الحب الرومانتيكى فى تلك الايام . ونجد فى قصة بول سان فيكتور «هيلويز وابيلار» صورة لذلك الحب نقلها من الواقع المحيط به ، وترجع هذه القصة الى اوائل القرن الثانى عشر .. على ان هذا الحب لم يحل دون تفشى الفجور ، وقد شغلت مشاكل الحب عقول الرجال ، ولكن الحل كان فى اغلب الحالات يأتى من ناحية المرأة .. وكانت هناك « محاكم للحب » تشرف عليها النساء ، ولها تشريع يضم ٣١ قانونا ، تدعو كلها الى الانحلال وعدم

التقيد بقيم الزواج كما نفهمه الآن .. كانت تحريضا مكشوفا على الفسق !

وقد وصف الشاعر « شوسر » المرأة الانجليزية فى ذلك العصر بالنحول والقصر . وقال انها كانت أشبه «بالعرسة» ، ترتدى مئزرا ابيض وتتمنطق بحزام من جلد تعلق فيه كيسها.

وكان مثال الجمال للمرأة فى العصور الوسطى ، ان تكون ذات شعر ذهبى ، وعينين ضاحكتين زرقاوين ، ووجه يستهوى العيون ، وشفتين قرمزيتين ، وأسنان دقيقة بيضاء ، ونهدين بارزين مكورين كثمرة الجوز ، وخصر نحيل تستطيع ان تطوقه بيديك وليس بذراعيك ! .. وقد انتشرت فى ذلك الحين مودة لف الرقبة بايشارب ، وتزيين الشعر بمشابك من الذهب . وكانت «تسريحة» الشعر تحتاج الى مئات الدبابيس ليحتفظ « بفورمته » ، ومن ثم بدا الفن يتدخل فى صناعة الدبابيس ــ فى القرن الرابع عشر ــ فحليت بالجواهر والاحجار الكريمة ، وقد استعملت بنت ادوارد الثالث ــ ملك انجلترا ــ اثنى عشر الف دبوس ليلة زواجها !

وقد اشتدت المغالاة فى تضييق خصور الثياب ، وفى توشيتها بالأحجار الكريمة ، فى القرن الخامس عشر . وكانت الانثى تحرص على تضخيم ردفيها بارتداء عدد من « الجونيلات » ، الواحدة فوق الاخرى ، بحيث تزحف العليا منها وراء السيدة. **وقد استغل احد رسامى الكاريكاتور هذا الطول فى رسم صورة للشيطان وهو يستعمل ذيل سيدة من سيدات هذا العصر كوسيلة للمواصلات !**

المرأة بين الجمال والعلم فى عصر النهضة

• **وتبدو** لنا المرأة فى اللوحات والتماثيل ــ التى انتجها الفنانون فى عصر النهضة ــ باردة هادئة ، ولكن حرية القول والعمل ، التى كانت من مميزات هذا العصر ، اتاحت للمرأة

مركزا مساويا للرجل . وكانت (البندقية) قد اصبحت منذ العصور الوسطى مركزا للباحثين عن اللذة .. كان فى شوارعها ١١٫٠٠٠ غانية ، وكانت الكنائس تغلق أبوابها عند غروب الشمس خيفة استغلالها لاغراض غير شريفة ! .. وكانت الفتاة الثرية تعيش فى دوامة يدور معها فيها عبيدها ، يبحثون لها عن وسائل اشباع ملذاتها . وكان الشعر الاشقر مطمع كل فتاة .. **فكانت الفتيات يجلسن الساعات الطوال يعرضن شعورهن لأشعة الشمس بعد ان يضمخن الشعر بمزيج من العسل والنوشادر والكبريت الاسود ، لاكسابه اللون الاصفر ! .. وكانت زوجة «الدوج» ـ حاكم البندقية ـ تفتتح الاحتفالات بالاستحمام فى مياه معطرة ثمينة !**

وكان الأسراف فى التحلى بالجواهر من شيم هذا العصر ، حتى أصدر البطريرك « جستينيانى » فتوى اعتبر فيها ذلك مخالفا للشريعة ، ولكن احتجاج النساء الى البابا جعل البطريرك يعدل عن فتواه . وكانت الخطبة تعلن قبل ان تمضى ساعات على ميلاد الانثى ، كما كانت معظم الزيجات تتم فى سن الثانية عشرة !

ومن ميزات هذا العصر رغبة الفتيات الصغيرات فى الثقافة ، فقد سمعنا عن «لارى جين جراى» ، التى درست «افلاطون» وهى فى الثالثة عشرة . وكانت « كاترين سفورزا » تمتلك معملا للابحاث خاصا بها . ودرست « اوليمبيا موارتا » اللغتين الاغريقية واللاتينية وهى فى الرابعة عشرة

كان لطرف اللسان حساب فى الجمال !

• **ويتمثل** الجمال ـ فى عصر النهضة ـ فى اوصاف ملكة نابلى .. كانت متوسطة القامة ، مستقيمة العود ، رشيقة القد ، لابدينة ولا بارزة العظام .. بشرتها بيضاء مشربة بحمرة ، ذات شعر ذهبى طويل ، واذنين دقيقتين تتناسبان مع فمها

الرقيق .. وكان حاجباها كهلالين بلون البن الفاتح ، وعيناها الزرقاوان ألمع من نجوم السماء .. وكان الأنف المستقيم يقسم الوجه الى قسمين متناسقين، وتمتاز الأسنان بأنها صغيرة وبراقة كالعاج المصقول ، وتكاد الشفتان الممتلئتان تقطران شهدا ، وتنفرجان عن فم ضيق ، له شذى الزهور ولا يفارقه الابتسام .. اما الصوت فملائكى ، ويتوسط الذقن « طابع الحسن » .. وكان الوجه يميل الى الاستدارة ، ويعلو رقبة مليئة بضة تستقيم فى خيلاء من بين الكتفين .. اما الصدر فقد اختفت منه آثار العظام ونفر فيه ثديان مليئان مستديران .. واليد راحتها كالعاج وظاهرها فى بياض الثلج ، يتساوى طولها مع طول الوجه .. ولا بد ان يكون عرض الاكتاف متناسبا مع بقية أجزاء الجسم ومع القدمين المتوسطتين المنتظمتى الاصابع!

وقد وصف أحد الكتاب النموذج العام للجمال فى ذلك العصر، فقال ان الشعر يجب انَ يكون اصفر ، والجبين عاليا مرتفعا ، والحاجبان غامقين ، والعينان بلون البن الغامق ! .. وكان من رأيه ان طرف اللسان يجب ألا يكون مدببا أو مربعا ولكن بيضاويا مستديرا !

وقد اهتم الفنانون فى عصر النهضة بهذه الاوصاف والتفاصيل، فكانت لوحاتهم وتماثيلهم تعبر عن سيدات الطبقة الراقية ، بوجوههن المتجهمة وايديهن الشبيهة بالزهور .. وكن شديدات الحرص على كبت مظاهر جمالهن الحسى ، ومع ذلك فانهن كن فاتنات ، يجمعن بين الكبرياء والاحتشام واللطف !

الملكة اليزابيث تتعطر بماء البصل !

● **وأى** قرن يتاح له ما امتازت به الفترة الاولى من عصر الملكة اليزابيث ــ فى انجلترا ــ خليق بأن يحتل مكانا فى التاريخ .. كانت النساء خلال تلك الفترة حديث الساعة ، وان كان مظهرهن ــ لا سيما فى القارة الاوربية ــ يبدو غريبا لنا . الراهبات يسرن

فى شوارع باريس وقد نثرن « البودرة » على شعورهن المعقوصة ، وارتدين جوارب قرمزية شفافة تعلو الركبة بحوالى سبعة سنتيمترات ، وقد طرزت حوافها .. وكانت الأحذية حمراء او بنفسجية ، وصدر الرداء مزركش .. وكانت الملابس تختلف باختلاف الفصول ، متراوحة بين الساتان والدمقس والقطيفة الموشاة بالذهب والفضة وقد تفنن الصناع فى الوان تطريزها .. هكذا كانت الراهبات ، فما بالك بالغانيات !

ويروى لنا التاريخ ان سفير البندقية فى البلاط الانجليزى وصف « اليزابيث » بأنها كانت امرأة وسيمة ، وليست جميلة .. وكانت بديعة الجسم والعقل .. فارعة العود ملفوفته ، ذات يدين جميلتين . وكانت – فوق هذا كله – تجيد اليونانية القديمة والايطالية ، وتسمو بفهمها وذكائها الى الذروة . وقد اثبتت قوة خلقها بصمودها للشكوك والاخطار .. وكان شعرها بلون الرمال ، وقد اعتادت أن تسرف فى استعمال « الروج والبودرة » ، حتى لقد قال الذين عاصروها ، انها كانت – فى ايامها الأخيرة – تطلى وجهها بمساحيق يكاد سمكها يصل الى نصف بوصة ، وكانت هذه المساحيق تعدو الوجه الى الرقبة والصدر !

ولقد انتشرت فى انجلترا تلك الفترة – حوالى عام ١٦٠٠ – عادة كشف مفاتن الصدر كدليل على ان صاحبته لاتزال عذراء . وقد استنت الملكة اليزابيث نفسها هذه السنة وتبعها نساء البلاط اللاتى لم يسبق لهن الزواج ! .. وكانت اليزابيث من هواة العطور الغالية ، فكانت تحمل قلادة لكل حبة من حباتها عبير خاص . وكان قفازاها ، بل وحذاءاها ومعطفها ، ذات شذى فواح .. وقد كان عطرها المفضل يتألف من المسك وماء الورد وعصير البصل والسكر !

أما المرأة العادية فقد تركت بيتها لتعرض زينتها فى الشوارع

وقد انتشرت فى هذا العصر الياقات المضلعة العريضة المنشاة ، و « الجونلات » المقواة بالاعواد الخشبية وعظام الحيتان ثم بالاسلاك المعدنية . وكانت السيدات يرتدين تحتها « الكورسيه » الذى يشد اجسامهن ويضغط صدورهن ، حتى اصبحن متشابهات ، كعرائس المولد ! .. وشهد القرن السادس عشر ارتفاع كعوب أحذية النساء لأول مرة ، وانتشر الكعب المغطى بالفلين الذى يعد مودة العصر فى ايامنا هذه

والواقع ان المرأة فى القرن السادس عشر قضت وقتا ممتعا .. اهتمت بكسائها وتلوينه . وتركت شئون دارها للخدم وكانت تجلس مع صويحباتها على ابواب الدور – ترقب المارة ويرقبها المارة – او فى السير فى الشوارع بلا هدف ، وفى ركوب الخيل ، وزيارة الصديقات ، وحضور الأفراح والجنازات !

وكانت معظم النساء لا يفتحن عيونهن فى الصباح قبل العاشرة ثم يقضين ساعتين أو ثلاث ساعات فى ارتداء ملابسهن ، ثم ينصرفن الى تناول طعامهن . وبعد ان يشبعن نهمهن بالطعام والشراب يبدان جولتهن حيث يثرثرن فى كل مكان يذهبن اليه .

اشراقة وسط الظلمات

• وفى ظلمات الفساد الذى دب فى المجتمع الانجليزى ، فى عهد الاصلاح – فى القرن السابع عشر – تتألق صورة « اليزابيث هاملتون » .. صورة لا تزال الى اليوم فى المتحف القومى بلندن ، وتمثلها فى مرحلة تفتح انوثتها .. لها ابدع عنق تراه اعين ، واجمل ذراعين فى العالم .. وكانت تتصف بالمهابة والجلال ، وتعتبر الاصل الذى تأخذ عنه جميع النساء الذوق وجمال اللباس .. ولم تكن عيناها كبيرتين ولكنهما كانتا مملوءتين بالحياة ، تستطيع صاحبتهما ان تعبر بهما عن كل المعانى التى يمكن ان تخطر ببال .. وقد بلغ تناسق اعضائها درجة الكمال ، واتزن عقلها مع جسمها .. وكانت نبيلة الاحاسيس ، اوتيت

من الصفات ماكان يجعلها دائما تتملك اعنة الحب وان تحتفظ باحترام الجميع ، فى آن واحد !

وفى هذا العصر تفشت عادة تعمد عدم الاهتمام بالملابس ، فكانت النساء يتركن اطراف الملابس التحتية ظاهرة من تحت ذيول الثياب الخارجية ، وخصلات الشعر مهملة فوق الجباه!

مباذل الجمال فى البلاط الانجليزى

• **ويحدثنا** عصر الاصلاح هذا ، عن نوع آخر من الجمال تمثله « ليدى كاستلمين » : الطول الفارع ، والشعر الاسود ، والعينان الزرقاوان ، والشفتان الفاقعتا الحمرة .. كانت فى السادسة عشرة حين قابلت « فيليب ستانهوب ايرل شسترفيلد » ، فلوثت الفضائح علاقتهما ، ولكنها زفت — فى النهاية — الى « روجر بالمر » الذى اصبح فيما بعد « ايرل كاستلمين » ، ثم رآها الملك تشارلز الثانى فى (لاهاى) ، ففتن بها .. وعاد فى ليلة ٢٩ مايو سنة ١٦٦٠ الى بلاده . وبدلا من ان يتصرف كملك يحس بمسئولياته ، قضى تلك الليلة فى دار صديق له ، مع الفاتكة الفاتنة ! .. وفى مارس عام ١٦٦١ ولدت طفلتها الاولى « آن » .. وكادت المرأة ان تجن من الغيظ ، حين اعلنت خطبة الملك لولية عهد البرتغال ، فأصرت على ان تضع وليدها الثانى فى القصر الذى كان الملك يقضى فيه شهر العسل ! .. ولكن الملك تصدى لها ، فوضعت طفلها « تشارلز » فى قصر ويستمينستر !

ويحدثنا تاريخ تلك الفترة ايضا عن امرأة ارتدت ثياب البراءة والوداعة للاعلان عن جمالها ، فى حين انها كانت فى الواقع عنوان القسوة والخطر ، انها « لويز دوكوروال » التى بعث بها لويس الرابع عشر — ملك فرنسا — الى تشارلز — ملك انجلترا — لتستولى على عقله وتتجسس عليه . وكان مظهرها الملائكى كفيل بان يخلب لب تشارلز ، ولكنها كانت تصده فى رقة

مشجعة .. ووصلت العلاقة الى ذروتها فى اكتوبر عام ١٦٧١ فى حفلة اقيمت بدار كونتيسة آرلنجتون الريفية .. **واقترحت المضيفة ـ زيادة فى المرح ـ اقامة حفلة زواج تهريجية .. وبعد ليلة صاخبة قادهما المدعوون الى غرفة الزفاف ، ودخلت كونتيسة ساندرلاند وعاونت العروس على خلع ملابسها ! .. وكانت نتيجة هذه الحفلة العابثة ان اذاعت لويز نبأ حملها من الملك ، واستغلت ذلك لاقناعه بالتحالف مع لويس الرابع عشر ضد هولندا !**

ولم تفتقر فرنسا فى القرن السابع عشر الى الجمال . فكانت مدام « دى منتنون » فارعة الطول ، بادية النبل والمرح والدعة والكياسة ، ذات عينين متألقتين تعبران عن عواطف جياشة وذكاء لامع .. وكانت مدام « لونجفيل » ذات جمال ملائكى ، ضاعفت من سحره بشرتها البضة البيضاء العسجدية ، وشعرها الذهبى ، وعيناها اللتان كانتا فى زرقة ماء البحر العميق .. وكانت هناك الشقراء الفاتنة : مدام «دى مونتسبان» ، و«مارى دى شيفريز » ، صاحبة الوجه البيضاوى المثير ، والعينين الزرقاوين النفاذتين المليئتين بالتعبير ، والثروة الثمينة من الشعر الأشهب بلون الرمال !

ضرب النساء فى شوارع لندن

• **ولم** تلبث ان اجتاحت انجلترا موجة من التطهر ، بفضل جهود «البيوريتان» ، فاصيبت نساؤها بنوبة من «الدروشة» والتقوى .. على ان موجة التطهر هذه ، سرعان ما انجابت ـ فى القرن الثامن عشر ـ فانطلق الفساد من عقاله ، وجمح ، حتى لقد عرفت هذه الفترة بانها «عصر الفضائح » .. اذ انتشرت فيها الشائعات ، وتمريغ سمعة نساء المجتمع الراقى .. فما كان لدى افراد هذا المجتمع ما يشغلهم سوى ذلك ! .. **وكانت الثروة المكتسبة حديثا ـ من تجارة الرقيق فى الغالب ـ قد**

بثت فى لندن نشاطا محتدما ، وجعلتها مسرحا للاهى لا حصر لها .. وكان العشاق يضربون نساءهم فى عرض الطريق ، ويجردونهن من ثيابهن امام الملأ .. وهكذا كان الفساد يتسم بالعنف !

على ان هذا لم يحرم القرن الثامن عشر من نساء خلدنه فى التاريخ ، مثل « الليدى كارولين لام » التى اعلن « شريدان » فى حفل عام انها المراة الوحيدة التى مال اليها قلبه . كما روت هى عن ولى عهد بريطانيا بانه بلغ فى غزله لها ان ارتمى على قدميها ، ثم انبطح على الارض واخذ يزحف ! .. وحكت كذلك كيف بلغ اعجاب مدام «ريكامييه» بجمالها ــ عندما زارتها فى باريس ــ ان دعت ضيوفها الى مشاهدة هذه الحسناء الانجليزية ، وهى تتقلب فى اوضاع مثيرة فى فراشها !

نساء اوربا فى القرن الثامن عشر

• **وكتبت** « ليدى مارى مونتاجو » ، فيما سجلته ــ خلال رحلة عبر اوربا الى القسطنطينية ــ ان نساء عاصمة النمسا كن يبنين ابراجا من الحرير الشفاف فوق رؤوسهن ، وللبرج طوابق اربعة او تزيد ، تقويها اشرطة ملونة لا حصر لها ، علاوة على الشعر المستعار الذى يتخلل شعورهن الطبيعية .. ترى لماذا كان يستهويهن هذا الحمل الثقيل فوق رؤوسهن ؟ !

وتصف نساء هانوفر قائلة : « كلهن اوتين خدودا وردية وصدورا وجباها شاهقة كالثلج ، وعيونا مكحولة ، وشفاها قانية الصباغ .. وتستوى فى هذه الاوصاف الكبيرات والصغيرات ! ان المراة فى هانوفر لا تنس زينتها وهى على فراش الموت .. انهن يبتعدن دائما عن الجلوس بالقرب من النار خشية ان تذوب مواد زينتهن ! »

ووصفت الفوضى التى رات عليها ملابس نساء باريس والالوان المتنافرة التى كن يصبغن بها وجوههن ، وشعورهن

المقصوصة ، وأطنان « البودرة » التى كانت توحى لمن يراهن بأنهن خارجات من « وابور طحين » !

عصر الفنانات والاديبات

• **وممن** التصق اسمهن بهذا العصر « سارة سيدونز » ذات الذكاء الخارق والقوام المهيب والتقاطيع الكلاسيكية والعيون الساحرة الجذابة ، والصوت العجيب الذى يجمع بين الرقة والعذوبة وبين القوة والتاثير .. وقد وصفها احد كبار ادباء عصرها ، بأنها قدمت من كوكب آخر ، « لتفرض علينا شخصيتها ومهابتها ، فان القوة تشع من جبينها والعواطف تبزغ من صدرها كما تبزغ القداسة من محراب ! » .. كانت من اعظم من اعتلين المسرح الانجليزى ، وكان المتفرجون يشخصون اليها بأبصارهم ، حتى اذا تلاقت عيناها بعينى احدهم لم يستطع الا ان يحول بصره لقوة سحرها !

وبرزت فى ذلك القرن ايضا « فانى بيرنى » ، الاديبة الجميلة .. وقد كان والدها ــ الدكتور « شارلز بيرنى » ــ استاذا فى الموسيقى ، تحيط به هالة من الادباء ونقاد المسرح والموسيقيين .. وقد نشات « فانى » بين هؤلاء . **ولما كانت تقاليد المجتمع البريطانى ــ اذ ذاك ــ لا تسمح بنشر اسماء الكاتبات الاديبات ، فقد لجأت فانى الى نشر مؤلفاتها باسم مستعار ، ولكن نجاح قصتها «ايفيلينا» جعلها فى مقدمة كتاب عصرها بين عشية وضحاها ، وجمع حولها نفرا من اشهر ادباء جيلها** • ولكن الملكة « شارلوت » اختارتها فجأة وصيفة لها ، ولم تكن تملك ان ترفض هذا « الشرف ! » . ومن ثم اصبحت ثياب الملكة وزينتها تشغل فانى عن الأدب !

المرأة العوبة الرجل

• **وكانت** الازياء فى ذلك العهد سريعة التقلب والتغير ، وكان

الفنانون يجدون فى « الموضات » المتتابعةمادة حية للوحاتهم . وعن طريقهم وصلتنا تفاصيل تلك الأزياء . . ففى اوائل القرن الثامن عشر ، كان من المجافاة للحشمة ان تترك المرأة جزءا عاريا - تحت رقبتها - يزيد على خمسة سنتيمترات .. ولم يحن منتصف القرن ، حتى اصبح كشف معظم الصدر والكتفين مستساغا .. ولكن « الموضة »عادت - بعد سنوات - الى تغطية الرقبة .. الى الذقن !.

وكان الرجال - فى ذلك الحين - لا يرون فى النساء سوى ملهاة كما كتب لورد شسترفيلد الى ولده يقول : ((ان **للفساد حديثا شهيا ، ولكنى لم اعرف امرأة واحدة فىحياتى تتحدث بالمنطق والعقل او تتصرف كذلك لاربع وعشرين ساعة متتالية .. وعلى الرجل العاقل ان يعبث بهن ،ويلعب بهن ، ويضاحكهن ويتملقهن ويطرى محاسنهن كما لو كن أطفالا صغارا ، ولكن .. حذار من ان يستشيرهن فى الجد من الامور وان يطمئن الى كتمانهن لسر من الاسرار ،وان كان عليه ان يقنعهن بأنهن موضع سره وموئله فى الاستشارة !))**

والحديث عن القرن الثامن عشر لا يتم الا بذكر صالون ((صاحبات الجوارب الزرقاء)) ، وهو المنتدى -((الصالون)) - الذى اسسته ((اليزابيث مونتاجو)) وتهافتت عليه الاديبات بعد عام ١٧٥٠ للحديث والمناقشة . ولم تكن واحدة منهن ترتدى جوربا ازرق ، رغم التسمية الغريبة التى اطلقت على الجماعة !.. وقد اصبح اسم ((الزرقاء)) يطلق - بعد ذلك - على كل انثى تهتم بالاب او الثقافة !

حكمة العالم ورقة الشاعر فى قلب امرأة !

• وفى القرن التاسع عشر ، وجدت النساء من الفراغ ما بعث السأم الى نفوسهن ، فرحن يغابنه بابتداع الزخارف والاشكال لتزيين ثيابهن بالورود الصناعية والتطريز .. واخذن

يتلهين بالاشعار الرومانتيكية والغــــزل الرقيق والرسم والموسيقى .. كما شغفن بتمثيل وتقليد شخصيات المجتمع والضحك منها وعليها .. وانحدرت الفضائل حتى اصبح لمعظم الرجال عشيقات ، ولمعظم الزوجات عشاق ! .. لقد كان قرنا جمع المتناقضات وانتج امـرأة جديدة ذات طابع خاص !

ومن بين النساء الاديبات اللاتى جمعن بين الجمال ومعالجة الادب «اليزابيث باريت براونج» ، (وقد حدثك المحرر فى العدد الماضى من «كتابى» عن قصة حبها للشــاعر روبرت براونج) .. وكانت فتاة صغيرة الحجم ،رقيقة الى ابعد حدود الرقة ، ذات وجه مستدير ، وجبين أشم .. ممتلئة الفم ، ذات شفتين شهيتــين ، تنفرجان عن اسنان لامعــة ، وعينين تنسدل أهدابهما على خديها .. وشعر مموج يدور برأسهـا وبرؤس من يتأملونه كنموذج للحياة والشباب ، وقد خلدتها مدينة فلورنسا بايطاليا ـ حيث أقامت حينا ـ بلوحة تذكارية خطت عليها كلمات تقول : **« هنا كتبت وماتت ، اليــزابيث باريت براونج ، التى اجتمع فى قلبها ، حكمة العالم ورقــة الشاعر ، ربطت بأشعارها الذهبية بين ايطاليا وانجلترا ، تقيم فلورنسا هذا التذكار اعترافا بفضلها ـ ١٨٦١ »**.

ويحدثنا هــذا القرن ايضــا عن الاخوات برونتى ، اميلى ـ مؤلفة «مرتفعات وذرينج» ـ التى أشيع انهـا كانت عشيقة لأخيها برانويل ، وشارلوت التى كتبت عن نفسها تقول: «لاتظن اننى طيبــة ، اننى فقط أحاول . واذا كان الكمــال الذى تنادى به المسيحية لازما للخلاص ، فان الخــلاص لن ينــالنى ابدا ، لأن قلبى مرتع خصب للمشاعر الخاطئة الرذيلة » ! .. ولعلها صورت نفسها فى قصة جين اير » !

وكانت « مارى آن ايفانز » مثالا آخر لنساء ذلك القرن .. فقد اقبلت على التأليف ، منتحلة اسم «جورج اليوت»



شارلوت برونتى كان جمالها يوحى بالبراءة ولكن قلبها - كما قالت - كان مرتعا لمشاعر الآثمة

فظنها النقاد رجلا استلهم زوجته تلك اللمسات النسائية التى تزين كتابه !.. وظهرت فى هذا القرن نساء اهتممن بالشئون الاجتماعية مثل « اليزابيث فراى » ، التى ألفت لجنة من النساء المثقفات لمساعدة نزلاء السجون فى انجلترا ، وفلورنس نايتنجيل التى توفرت على التمريض ورفع مكانة الممرضات .. وكانت فلورنس امرأة تعيش من أجل مثل عليا ، تحب العمل مع الرجال ، وتقول انهم أكثر ولاء من بنات جنسها !

ملكة الصحراء !

• **وكان** لفن الجمال مقاييسه الخاصة فى هذا القرن **وقد اوردتها مسز هاريس فى كتابها « فن الجمال » ، اذ** قسمت النساء الى فريقين : ذوات الشخصية وعديماتها!.. فالفتاة عديمة الشخصية هى التى تفشل فى جذب الانظار ، لأن الجاذبية هى الصفة الأولى للمرأة .. ولكل امرأة نواح خاصة تجعلها ذات شخصية جذابة ، كالرشاقة والثقافة والجرأة .. اما الفتاة الكئيبة ، او الهيابة،او المفرطة الخجل، فانها تفقد جاذبيتها !

ويحدثنا القرن التاسع عشر ايضا عن ثائرة اخرى هى ليدى « هيستر ستانهوب » ، فقد تركت بريطانيا وسافرت الى قرية (جونه) - بجبال لبنان - حيث توفرت على دراسة الفلك والعلوم الخفية ، وكانت جميلة جذابة ،كتبت

عن نفسها فى عام ١٨١٣ تقول : « لقد توجت ملكة على الصحراء تحت اقواس النصر فى مدينة (تدمر) الاثرية . انهم يقولون اننى الشمس ، والكوكب ، ولؤلؤة الصحراء ، وضوء السماء .. اننى ملكة الصحراء ! »

وكانت الامبراطورة اوجينى ، وهى فى السابعة والعشرين ، أجمل امرأة لا فى فرنسا وحدها بل بين نساء العالمين . وصفوها فقالوا انها كانت متوسطة القامة ، مهيبة القوام شقراء ساحرة ، وكانت الاهداب السمراء الطويلة تظلل عينيها الزرقاوين ، وخصلات الشعر الذهبى تتهدل على جبينها الوضاح . وكان حاجباها المنسقان بطبيعتهما ، وجفناها المسبلان توحى لمن يراها بأنها امرأة لايمكن ان تزل .. وكان الفنانون يعدون كتفيها وذراعيها ورقبتها نماذج تحتذى فى اعمالهم الفنية . كانت فتانة فتاكة ، فى بلاط كثرت فيه الغانيات الفاتنات !

وكانت رشاقة جسمها البديع تتبدى واضحة تحت « البلوزة » كثيرة الأزرار ، و « البنطلون » الرمادى الذى كان ينم عن مفاتنها وهى على فرسها وقد امسكت العنان بيدها الرشيقة ذات القفاز البديع ، بينما امسكت فى يدها الاخرى سوطا رقيقا ! .. وكان مقدورا لها ان تصبح امبراطورة لفرنسا ، فتزوجت من « لويس نابليون » ، وتوجت فى ٣٠ يناير سنة ١٨٥٣ . وقد بدأ ــ بوصول « اوجينى » الى العرش ــ عهد للأناقة ، كان ينبغى ان تكون هى زعيمته الطبيعية ، لولا ان الكونتة «كاستليونى» ــ محظية الامبراطور ــ كانت تفتن فى ابتكار الأزياء التى كانت تكشف عن أدق مفاتنها بشكل يثير كوامن الاحساس بالجمال . **ومما يؤثر عن «الكونتة» انها لم تستعمل « الكورسيه » فى حياتها .. وكان رجال البلاط يلهثون حين تبدو امامهم ! .. ولكن سلطانها على عرش الجمال كان قصير العمر . ففى الخامسة والثلاثين من**

عمرها ، راحت « الكونتة » تنهار كبالون مثقوب ، اذ تساقطت اسنانها ، وابيض شعرها ، وتهدل صدرها .. واخيرا انسحبت من المجتمعات الى الظلال وماتت فى خفاء !

ويحدثنا هذا القرن عن « مارى شيللى » ، زوجة الشاعر التى كانت تغار من صداقته لزميله الشاعر بايرون . وكانت ملفوفة العود ، ذهبية الشعر ، ذات كتفين مرمريتين ، وبدن رخص .. وكانت رقيقة ، كيسة ، نبيلة الاحاسيس راجحة العقل .. كما يحدثنا عن « كاترين بوث » ، عضو جيش الخلاص ، واحدى رائدات الحركة النسائية ، اذ كانت من اول من طالبن بحقوق المرأة .. و « جورج ساند » التى كان حبها للحب سببا فى تعلقها بكل من الفريد دى موسيه وفردريك شوبان !

« السينما » توحد مقاييس الجمال فى عصرنا

• **وفى** اوائل القرن العشرين ، ازداد اهتمام المرأة بفنون تصميم الازياء ، لابراز جمال الانوثة !.. ولجأت الى « كورسيه » ابرز صدرها ونسق مظهر عجزها ، والى « الياقات » العالية المنشاة والشعر المستعار ، والقبعات الضخمة .. **وكان نشوب الحرب العالمية الاولى ايذانا بانقلاب فى عالم المرأة ، اذ فتح الطريق لعنصر جديد فى مقاييس الجمال ونماذج الازياء ، وفد عبر المحيط الاطلسى مع الموسيقى الامريكية ، والرقصات الأمريكية ، والدولارات الامريكية !**

ولما نشبت الحرب ، تطورت ملابس الجماهير فى اتجاه واحد ، حتى لقد اصبحت النساء وكأنهن مجندات ، يرتدين زيا واحدا .. حتى اذا انتهت الحرب ، هبط خط الخصر فى اثواب النساء الى اسفل نحو قدم ، وبدأ الحلاق جهوده فى شعور النساء ، فقصصن شعورهن « الاجارسون » وارتفعت الجونلات الى مافوق الركبة ! .. وأقبلت الفتيات على الخوض فى أحاديث كان ذكرها يدفع الدماء الى وجنات امهاتهن !

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وجاء معها الظلام والغارات .. وخرجت النساء ببنطلونات الرجال . وأصبحت المخابىء هى المنتديات الاجتماعية فى المدن ، وقيد توزيع الأقمشة بالبطاقات رغبة النساء فى الاناقة ، فأصبحت « فساتين السهرة » من احاديث الماضى ، وساهم الزى العسكرى فى ازالة الفوارق بين الطبقات ، بل وبين الشعوب ، فقد كان – فى تلك الفترة – زيا دوليا ! .. والواقع ان الازياء كموجات البحر ، تتتابع فى مد وجزر !

ولقد كانت مقاييس الجمال فى تغير مستمر – على مر العصور – تبعا للعادات والثقافة والقومية وأساليب الحياة .. وكان لكل عصر طابعه فى الجمال النسوى . أما طابع القرن الحالى ، فهو توحد مستويات الجمال فى العالم .. ولعل للسينما أثر كبير فى هذا التوحيد ! فقد أصبحت « الافلام » تنقل الى النساء – فى كل مكان – تطورات الجمال والأزياء . فعندما نزل ملك انجلترا عن عرشه من أجل « مسز سمبسون »، تهافتت النساء على تقليد المرأة التى تغلبت على امبراطورية .. بل ان كواكب السينما اصبحن مثلا تحتذى فى عالم الجمال الانثوى . فقلدت الفتيات « جريتا جاربو » فى انوثتها التى تجمع بين السحر والصرامة .. كانت نحيفة ، فى رشاقة ، ذات بشرة متألقة ، وأصابع بديعة، وساقين ملفوفتين متناسقتين، وثديين صغيرين متماسكين كثمرتين من الكمثرى لم تستكملا نضوجهما ! .. ولم تكن تلطخ وجهها بالمساحيق والطلاء !

وفجأة ، ارتدت « الموضة » الى ما بدأت به منذ القدم ، فأصبح تمثال « نفرتيتى » – الملكة المصرية التى عاشت منذ ثلاثة آلاف عام – هو النموذج الذى تقلده النساء ! .. وهكذا رأينا جمال المرأة يتطور على مر العصور ، ثم يرتد الى ما كان عليه فى أقدم العصور !

بعد هذه الالمامة السريعة الخاطفة بتطورات مقاييس

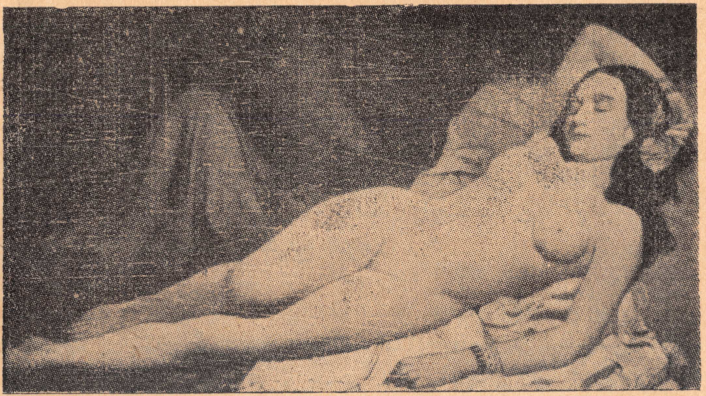
الجمال ، ننتقل الى استعراض انواع الجمال !

الجمال المثير للحواس

• **من** العسير ان نميز « الجمال المثير للحواس » بمعالم ينفرد بها دون غيره من الوان الجمال .. فكم من نساء ممن يعتبرن مثيرات ، افتقدن الملامح والقسمات التى تنطبق عليها مقاييس الجمال ! .. ومن ابرز من شذذن عن هذه الظاهرة ، وجمعن بين الفتنة الحسية والجمال الجسدى : **« لوكريشيا بورجيا » اشد نساء التاريخ فجورا !**

كانت لوكريشيا خير مثال لعصر « النهضة » ، الذى شهد يقظة الفكر البشرى ، وشهد ما سبق هذه اليقظة من تكاثف الظلمات . فقد نشأت فى مجتمع ساده الضلال والقسوة التى كانت تذهب الى درجة الوحشية .. فكان الأمراء وسادة المجتمع يعاقبون من يتعرض لسخطهم ببتر الأطراف ، وانتزاع العيون من محاجرها ، واطلاق الكلاب المتوحشة لتنهش لحمه حيا ! .. ولم تقتصر القسوة على الحكام ، بل تعدتهم الى الرعية .. فقد ثار شعب (بولونيا) ـ الايطالية ـ على اسرة « بنتيفولى » التى كانت تحكمه فى القرن الخامس عشر ، فاذا الثائرون يقبضون على فرد من هذه الأسرة فيمزقون جسمه بالخناجر ، و « يخللونه » فى برميل ملىء بالنبيذ ! . . وكان القوم يذهبون فى طلب الثأر الى درجة تقشعر لها الأبدان !

وكان امام القساة الفاسقين فى ذلك العصر ، هو« رودريجو بورجيا » .. البابا الذى حمل اسم « اسكندر السادس » ، ولقب « رأس الأسرة المقدسة » ! ..وقد وصفه «مكيافيللى» بانه أفسق أفعوان ظهر على الارض .. وفى احضانه نشأت **« لوكريشيا » ـ ابنته التى فسق بها وهى بعد فى الثامنة من عمرها ! ـ مشبعة بروح الجو الذى ترعرعت فيه ، فكانت مصابة بسعار الجنس ، وكانت مشاعا بين ابيها وأخويها ! ..**



الجمال المثير ، كما عبر عنه الرسام « بوشيه »

وماذا ينتظر المرء من أنثى حضرت مع أخيها «سيزار» يوما ، حفلة حيوانيـة اشتركت فيهـا خمسين امرأة تجـردن من ثيابهن وعفتهن وانسانيتهن فى وقت واحد ؟ .. مـاذا ينتظر المرء من طفلة كانت تقف مع ابيها لتشهد أربعـة من الخيول الجامحة اعتاد « البابا » ان يطلقها على اثنتين من اناث الخيل، حتى اذا أثار المنظر الدماء حارة فى الأب والابنة ، واجج سعارهما الجنسى ، انقلبا يمارسان ابشع فسق .. فسق الأب مع ابنته!

وكانت لوكريشيا فاتنـة ، وقد وصفها الشاعر الانجليزى « سوينبيرن » – الذى كان يهيم بالجمال الكامل – كما رآها فى سنة ١٥٠٠ : « كان يشع من عينيها الجميلتين – الشبيهتين بالزهور – ذلك الضوء البهيج المألوف لدى الحسان .. وكان جسمهـا الرقيق يتضوع بأريج يفوق أريج الورود .. وكان شعرها غزيرا ، فى صفرة أشد انواع الذهب ندرة ، أو كرحيق

اريق من خلية نحل .. وكان طويلا ، يصل الى كعبيها ، متموجا ، فكأنه أمواج بحر تحت اشعة الشمس فى يوم هادىء النسيم .. وكان فمها العذب أحمر ، مستديرا ، تظل شفتاه ملتصقتين ما لم تتكلم صاحبتهما .. وكان عنقها طويلا ملتفا .. اجمل عنق حمل رأس امرأة » !

وقال يصف أول زيارة منه لها : « كانت مستلقية على مضجع وعلى فمها ابتسامة ، ولم يكن يسترها شىء .. لم يكن يسترها سوى ذلك الجمال الذى اسبغه الاله على بشرتها ليفتن الرجال .. وكانت احدى يديها مسترخية ـ فى اهمال ـ على فخذها ، واحدى ساقيها مدسوسة فى باطن الساق الأخرى فى دلال .. وكان تنفسها الهادىء يرفع ثدييها ويخفضهما فيتذبذب الضوء عليهما ، وبين كل خمس شهقات ، كانت تنتفض كقيثارة يشد وترها فى فترات منتظمة .. وكانت شفتاها تختلجان مع انفاسها فكأنهما لهب تداعبه الرياح .. وكان شعرها مسترسلا ، وقد تداخلت بعض خصلاته بين ثدييها .. **كانت فى مجموعها تتألف من أضواء والوان دافئة .. كانت ملاكا عاريا سلطت عليه الانوار ! »**

وسمر « سوينبرن » فى مكانه ، وأخذ جسمه ينتفض ، وأنفاسه تتهدج وتكاد تخنقه ، وعقله يتخبط ويوشك ان يتردى فى الجنون .. ولم تهدأ نفسه ، الا بعد ان احتوتهما دوامة مسعورة !

بقى ان تعرف ان لوكريشيا كانت اذ ذاك فى الحادية والعشرين من عمرها .. وكانت قد تزوجت مرتين ، وأنجبت أولادا ، وأخذت تتهيأ لزواج ثالث !

الجمال الروحى

• فى سنة ١٩٢٠ ، أعلن قداسة البابا « بندكت الخامس عشر » ـ بموجب السلطة الروحية المخولة له ـ ان « جان

دارك ادرجت فى عداد القديسين » .. والواقع ان شعور الرجال بالجمال ، وتقديرهم للواجب وللتضحية فى سبيله ، سيظلان دائما مقترنين بذكرى « جان دارك » . ولا يستطيع احد ممن قرأ سيرتها – وما اكثر ما كتب فيها – ان ينكر ايمانها القلبى برسالتها ، وتصميمها على تحقيقها .. ولعل اعجب ما فى تاريخها ، انها ادت هذه الرسالة فى اربعة شهور، ثم تعرضت بعد ذلك للاعتقال المهين ، والمحاكمة المخزية ، والمصرع الاليم !

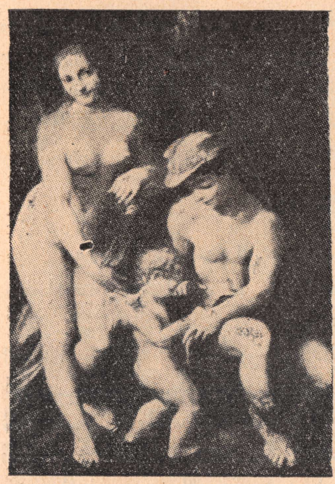
وكانت جان فتاة خجولة وادعة ، تحب الطبيعة والاطفال وبيتها ووالديها واخوتها .. **وتحب الله – قبل كل شيء – ولم تشك لحظة فى ان رسالتها كانت قدسية ، من وحى الله .. وكانت فى غمار المعركة تبكى على الأسرى والجرحى من أعدائها الانجليز ، لأنها لم تكن تحمل حقدا ولا ضغينة !** .. وكان هذا هو سر قوتها وصمودها أمام السياسيين والعسكريين والمدنيين ورجال الدين .. وعندما أشعل أعداؤها وحاسدوها النيران حولها ، لم تلعن ، ولم تجدف ، ولم تتخل عن ايمانها لحظة واحدة .. بل راحت تردد اسم الله ، الى ان فارقت الحياة !

هذا هو جمال الروحانية .. جمال القداسة !

الجمال العارى

• **ولقد** امتاز جسد المرأة بمغناطيسية غريبة ، هى التى جعلت جميع الأعمال الفنية تصورها وفقا لأحلام الرجل ورغباته ، ولايحاءات المثل العليا التى تسود العصر الذى يعيش فيه .. **وكان الادراك الاول للمرأة يتركز على وظيفتها كأم للجنس البشرى**

وتعد لوحة « فينوس وكيوبيد » – التى ابدعها الرسام « جاكوبو ديل سيللايس » فى القرن الخامس عشر – مثالا لذلك ، فلقد صور الرسام ربة الاخصاب فى صورة انثى حبلى



الجمال العارى، كما أبرزه «كوريجيو» فى «فينوس»

ورمز للوفرة بالرمانة ، التى رسمها بالقرب من ذراعها اليمنى وبعنقود العنب الذى وضعه فى يد كيوبيد !

وقد افتتن رسامو (البندقية) فى القرن السادس عشر ، فى ابراز نداء الجسد فى لوحاتهم ، وتعد لوحة «فينوس اوربينو» أصدق مثال لذلك .. وقد استغل الفنانون الألوان أجمل استغلال للتعبير عن معالم الجسد وشهوانيته ! . . **ولقد ظلت «فينوس» رمزا للمرأة المثالية الكاملة قرونا عديدة ، وان كان مظهرها يتراوح بين منظر الربة ومنظر الانثى التى تتفجر فيها النوازع الانسانية .. وأوحت هذه الربة الى كثير من الحسان بأن يتجردن من ثيابهن فى سبيل الفن** ، مثل «سيمونينا فيسبوتشى» ، التى مكنت الفنان بوتشيللى من ابراز نضوج الفن فى عصر النهضة ، بلوحته الخالدة : «ميلاد فينوس» .. وهناك «بولين بونابرت» ــ اخت نابليون ــ التى رسمها «كانوفا» و «برودون» .. وقد رسم هذا الاخير كلا من الامبراطورة «مارى لويز» و «دوقة البا» كذلك

ولى يكن رسم الجمال العارى أمرا سهلا فى جميع الاوقات، فكم تعرض الفنانون للمحن على مر القرون . وقد خلد التاريخ ذكرى يوم من ايام الثلاثاء ــ فى سنة ١٤٩٦ ــ ثار فيه أهل فلورنسا فأحرقوا جميع اللوحات المثيرة ، والمقطوعات الموسيقية،

والكتب الغرامية !.. ومن الفنانين من استعان بالدمى المتحركة عندما تعذر عليهم الحصول على نموذج آدمي عار .. وكان « البرخت دورار » - كبير فناني عهد النهضة في المانيا - يتردد على الحمامات العامة لدراسة تفصيلات الجسم الانساني عاريا .. واستعان « كوريجيو » بأخته ، و« تيتيان » بابنته !

الجمال المنحوت

• **وليس** من جدال في ان مظهر المرأة يتغير بتغير الثقافة والعادات والبيئة . بل ان الجو الذي يحيط بالمرأة في ساعة ما، يؤثر على مظهرها .. ولكل عصر من العصور تفسيره الخاص للجمال النسوى ، ومن ثم فليس في الوسع المفاضلة بين لوحات « رمبرانت » ولوحات « دافنشي » مثلا .. **ذلك ، لأن الجمال لايخضع للقواعد الجامدة ولا يتقيد بها . ولهذا فان الاشياء التي نراه فيها ، قد تكون غير تلك التي يراه فيها سوانا .** ومن الناس من لا يفقه مواطن الجمال في الأشكال النسوية المعوجة التي رسمها « بيكاسو » .. كما ان رجل الشارع قد يسلم بأن اسم « جاكوب ابشتاين » قرين للفن المعاصر ، ولكنه يرى - في الوقت ذاته - ان هذا النحات قد تمرد على الفن المألوف منذ القدم وراح يهدمه ! .. ومع ذلك فان تماثيل « ابشتاين » تترك آثارا مطبوعة في ذاكرة من يتأملها ، فهو اما ان يعجب بها ، واما ان يبغضها .. ولا مجال للتوسط أو الحياد !

والواقع ان « ابشتاين » نحات ممتاز ، استطاع ان يشكل تماثيله من المعادن والجرانيت والمرمر ، ولكنه لا يتحرى ابراز الجمال في تماثيله . **بل انه يترك انتاجه بلا صقل ، اعتقادا منه بأن الواقع - الذي ينقل عنه - ليس مصقولا في الطبيعة ، كما انه يؤمن بأن المثال يجب ان يودع التماثيل التي يصوغها افكاره هو ، دون تقيد بما في أفكار رجال الأخلاق** .. وعلى

هذا الأساس انتج تمثاله : « التكوين » ،محاولا تصوير غريزة الانوثة ، دون ان يعنى باظهار فتنتها . وهو يقول عنه : « انه يبدو – من القاعدة الى ماتحت الركبة – وكأنه ينبع من الأرض ذاتها .. ثم يتبدى الفخذان والحوض الضخم الذى قدر له ان يحمل الانسان .. وان المرأة لتحس بالطفل فى احشائها ، فتمد يدها الى بطنها لتتحسس هذه الحياة الجديدة » .. ان هذه الكتلة الصماء تترك اثرا فى وعى الانسان كحيوان ، اذ يجد فيها املا متجددا فى المستقبل !

وسواء بدت الاشكال الانثوية فى « ستوديوات » الفنانين واضحة ، او بدت غير مفهومة ، الا انها تعكس شيئا من حيوية أهداف خالقيها .. وقد يصور الفنان المعاصر رأس الانثى كرأس السلحفاة أو كرأس الدبوس ، دون ان يحط هذا من قدره كمجتهد يساهم بنصيب فى الفن !

الجمال الكلاسيكى

• **من** العسير على المرء ان يختار مثالا معينا بالذات يعتبره معبرا عن الجمال الكلاسيكى . ومع ذلك فانى اعتقد ان « ايما هاملتون » جديرة بأن تنتخب كصورة لذلك الجمال ، تبارى فى تسجيلها فنانو عصرها .. وقد قال جيته عنها انها كانت كلما بدلت ثيابها أو أوضاعها ، بدت فى صور جديدة ، اكثر جمالا من سابقاتها ، حتى ليحس الناظر اليها بأنه فى حلم جميل .. وكانت قسمات وجهها وحركاتها تعبر عن جميع النوازع التى تطوف بالنفس الانسانية .. كانت فيها خلاصة جمال الأقدمين والمحدثين !

كان لون بشرتها أكمل وأنصع ما يمكن ، وكان يتمشى مع شعرها الداكن الدافىء ، الذى كان من معالم جمالها ، اذ كان ينبع من جبينها العريض وينساب فى موجات بديعة الى كعبيها .. وكانت العبقرية تشع من عينيها اللتين حير لونهما الناس ، فلم

يكن هناك من يستطيع ان يجزم بما اذا كانتا رماديتين او بنفسجيتين ! .. وقد اجمع النقاد الفنيون على ان فمها كان نموذجا فريدا للجمال !

الجمال وفن الخداع

• لم تقنع المرأة ابدا بمظهرها الطبيعى ،بل حاولت على مر العصور تحسين ما أضفته عليها الطبيعة ،فاستخدمت الدهانات والعجائن والمساحيق .. واستخدمت موادا عجيبة لتجميل بشرتها .. استخدمت عصير التفاح مع الليمون ، وحمامات اللبن . **وكانت أبرع النساء فى ميدان التجميل ، هن نساء مصر العريقة . ويكفى اختبار الدهانات التى عثر عليها فى آثار الفراعنة ، والتى يرجع عهدها الى خمسة آلاف عام ، لنتبين انهن سبقن نساء العصر الحالى !**

وفى اليونان ، كانت الاناث يكحلن أعينهن بالسناج (الدخان) المتصاعد من احراق الصمغ والفحم .. وكانت الفارسيات يصبغن أكفهن واظافرهن بالحناء .. وكانت مارى — ملكة اسكتلندا — تستحم باللبن ، بينما كانت اليزابيث الأولى — ملكة انجلترا — تنقع جسمها فى النبيذ لازالة تجاعيد الشيخوخة!

ومن اطرف المحاولات التى بذلت لمكافحة الجمال الزائف ، قانون صدر فى انجلترا ، فى سنة ١٨٧٠ ، وجاء فيه : « كل امرأة — مهما يكن عمرها أو طبقتها أو عملها — وسواء كانت عذراء او ثيب ، متزوجة أو ارملة .. ترتكب عملا من اعمال الغش ،باستعمالها العطور ،او الأصباغ،او الدهانات والمعاجين، أو الاسنان الصناعية ، أو الشعر المستعار ، أو السلال المعدنية التى تحيط بالخصر ، او الاحذية ذات الكعوب العالية ، او النهود والمشدات الصناعية ، تتعرض للمحاكمة والعقوبات المنصوص عليها فيما يتعلق بممارسة السحر والشعوذة .. وكل زواج يتم باستخدام هذه الوسائل يعتبر باطلا » !

جمال المحظيات والفوانى

• **لعل** احتراف الفتنة ــ سواء سمينا المحترفات محظيات أو غانيات أو مومسات أو عاهرات ــ هى أقدم حرف النساء اطلاقا .. ولهذا النوع سحر خاص على الرجال ، كثيرا ما يرهبونه ، ولكنهم لا يملكون سوى ان يحبذوه !

ولا تتقيد هؤلاء النساء بفضيلة او خلق ، بل انهن يستعملن جمالهن ومواهبهن دون تحرج ، وبذلك استطعن اغواء اصحاب السلطان .. بل ان منهن من اصبحت امبراطورة ، مثل « ثيودورا » المومس التى اعتلت عرش القسطنطينية فى عهد الدولة الرومانية ، وفرضت سلطانها على الامبراطور « جستنيان » .. وبعد ان ماتت بسنتين ، اعتبرت قديسة !

وكانت « لويز ديفاليز » ــ فاتنة لويس الرابع عشر ــ من طراز اخر .. فلقد احبت الملك الفرنسى حبا صادقا .. ثم هجرته الى دير الكرمل ، حيث قضت ثلاثين عاما . وقد كتب على قبرها : **« احبت من اجل الحب ذاته .. هذه السيدة الرقيقة الضعيفة ، أحبت بلا تبذل ولا غرور ، بلا اطماع ولا انانية . لم يكن لها امل فى استبقاء حبيبها ، وكانت على استعداد لاحتمال الآلام والاستهانة بكل تضحية .. وعندما فقدت الأمل كله ، وجدت فى عبادة الله ملاذا »!**

وهناك مدام «دى مونتسبان»، والمركيزة «دى بومبادور» ومدام « دى بارى » .. و « نيل جوين » .. وعشرات ، بل مئات ، فى كل دولة ، وفى كل عصر ، سجلن اسماءهن فى صفحات التاريخ عن طريق الرذيلة !

الجمال .. كما يراه الآخرون

• **من** العسير على الرجل ان يحكم على جمال المرأة ــ اذا ما لمحه ــ وفقا لقواعد معينة محددة ، على ان

محاولات الماضى ، تعطينا ثلاثين نقطة ينبغى توفرها فى المرأة كى تعتبر جميلة .. وهذه النقاط هى :

ثلاثة بيضاء : البشرة والاسنان واليد
ثلاثة سوداء : العين والحاجب والأهداب
ثلاثة حمراء : الشفة والخد والاظفر
ثلاثة طويلة : القوام والشعر واليد
ثلاثة قصيرة : الاذن والاسنان والقوام
ثلاثة ضيقة : الخصر والفم والكاحل (ما بين الكعب والساق)
ثلاثة ممتلئة : الردف والذراع وباطن (سمانة) الساق
ثلاثة طرية ناعمة : الأصبع والشفة والشعر
ثلاثة صغيرة : الأنف والرأس والثدى
ثلاثة عريضة : الجبهة والصدر وما بين الحاجبين

ولقد اهتم النقاد — منذ أقدم العصور — بالكتابة عن مغالاة النساء فى مجالات التجمل . فكتب « جوفينال » — فى سنة ٦٠ — عن زيارة امرأة للحلاق :

« ان رأسها وحده يتطلب عشرين مصففا ، فيقف رئيسهم عارى الصدر والكتفين ، يفحص كل شعرة مقدسة وهو يرتجف .. ويلفون الخصلات بعضها فوق بعض كأنهم يبنون حصنا منيعا ! .. انها (المرأة) لتبدو كالعملاق ، ولكنك اذا نظرت من خلف رأيتها قزما .. فالساقان كساقى البطة ، والخصر منخفض .. وانها لمن القصر بدرجة انها تقف على اطراف اصابعها لتقبلك ! »

وكتب ميشيل دى مونتانى ، فى القرن السادس عشر ، عن اهتمام المرأة بشكلها : **« لكى تجتذب النساء انظار الرجال جميعا ، يعمدن الى صبغ انفسهن ويتخضبن ليكتسبن جمالا زائفا .. ولقد رأيتهن يبتلعن الحصى**

والرماد والفحم والتراب والشمع ، ويرهقن انفسهن ويفسدن أمعاءهن ، لا لشىء الا لتكتسب بشرتهن شحوبا ناصعا ، وخصورهن نحولا ، واجسامهن نحافة .. أى قرص وتدليك وتحزيم يحتملنه فى سبيل ذلك ! »

ولو نقبنا لما وجدنا مجالا لعرض كل ما قيل . ولكن ابلغ ما ورد ، هو ذاك الذى كتبه فرنسى يدعى « جول نيشيليه » فى القرن التاسع عشر : **« ان المرأة معجزة تألفت من متناقضات الهية » !**

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى

(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الأم • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • اغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الأرامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق أشبيلية • كاليجولا • هوراس • حوادث سعيدة بالجملة • الهاربة من الفضيحة • رجل الأقدار • جوديث • نيكراسوف • أنباء مثيرة • البخيل • الانتقام الرهيب

واليوم ، أقدم لك مسرحية ذات مغزى خاص :



جندى محترف!

للكاتب الإيرلندى الساخر : جورج برنارد شو

تلخيص : محمد كامل الدهميس

الفكاهة والجد .. فى مسرحية !

◆ اخترت لك فى هذا الشهر مسرحية من أوائل المسرحيات الكاملة التى كتبها الكاتب الايرلندى الساخر « جورج برنارد شو » ، عندما أثار شهوته الى الكتابة ، كثرة ما قدم من مسرحيات فى سنة ١٨٩٤ ، عندما كان منصرفا الى النقد المسرحى والأدبى .. ولقد اختار « شو » لمسرحيته موضوعا خفيفا ، حشاه بالفكاهة والمفارقات . ولكن روح النقد التى كانت متغلغلة فى أعماقه بالفطرة ، أحالت الموضوع الخفيف الى دراسة لاذعة للمجتمع وللطبقة الراقية .. وهذه المسرحية حلقة من سلسلة من المسرحيات ، أطلق عليها « شو » اسم « المسرحيات السارة » ، وحاول فيها أن يبدو سطحيا ـ وان اضطرته سليقته الى التعمق رغما عنه ـ وتمرد فيها على « المثالية » لأنه رأى العالم يسىء استغلال هذه « المثالية » ، ويتخذها ستارا للجريمة وللانحلال وللحرب ، باسم المدنية والرقى والوطنية

انها مسرحية للجميع .. فان شئت التسلية قبل النوم ، استطعت أن تجد فيها الفكاهة وخفة الموضوع .. وان شئت ان تقرأ لتفهم وتفكر ، وجدت فيها النقد الصحيح ، والأفكار العميقة .. فاختر لنفسك ما يحلو !

الفصل الأول

◆ ترفع الستار عن مخدع عذراء ، وقد بدا الليل ـ خلال شرفة فى صدر الغرفة ـ مخيما على بلدة بلغارية صغيرة ، على مقربة من الحدود الجبلية ، حيث كان القتال محتدما بين الصرب والبلغار .. وبدت فى الغرفة أريكة واسعة ، وصوان صغير ، حمل فوق ظهره مجموعة من الكتب ، وصندوقا من صناديق « الشيكولاتة » ، وصورة لضابط أنيق مليح

وجلست فى الشرفة ـ التى لفها جو شاعرى ـ شابة حسناء ، راحت تحدق فى قمم الجبال البيضاء ، تحت ضوء

القمر ، وقد تدثرت — فوق قميص نومها — بمعطف من الفراء الثمين . ولا تلبث ان تندفع أمها « كاترين بيتكوف » الى الشرفة ، لتنبىء « رينا » — وهو اسم الفتاة — بأن خطيبها الضابط « سرجيوس » ، كان صاحب الفضل فى كسب موقعة هامة

كاترين : ان اباك هو الذى أرسل النبأ .. لقد أصبح سرجيوس بطل الساعة .. لقد تحدى القادة الروس فى جيشنا ، وغامر بأن قاد الفرقة على مسئوليته ، فكان أول فارس يبدأ الهجوم على الاعداء .. وانت ؟ ! .. لقد تركت هذا البطل **ينتظر عاما كاملا ، دون ان يعقد قرانه عليك ! .. آه ! لو كانت فى عروقك قطرة من دم بلغارى ، لعبدته عندما يعود !**

رينا : وفيم تهمه عبادتى المتواضعة وقد بز بنصره بطولة جيش كامل ! .. الا تفشين سرى اذا انا حدثتك عن عواطفى ؟ .. لست أكتمك اننى كنت أرتاب فى توفر النبل والشجاعة لديه ، ولكنه حقق لى كل ما كنت أتخيل من صفات البطولة !

وتقبل الخادمة « لوكا » — اذ ذاك — قائلة : « لا بد من أن نغلق جميع النوافذ فورا ، فقد يطلق الرصاص فى الطرقات ، اذ ان الصربيين ينشدون الفرار ، وقد يدخلون البلدة وفرساننا فى أعقابهم ! » .. وتنصرف السيدة مع الخادمة لتستوثقا من اغلاق جميع الابواب ، فتتطلع « رينا » الى صورة الضابط بنظرات ولهانة حالمة ، ثم تخلع دثارها ، وتندس فى السرير . غير انها لا تلبث أن تسمع طلقات فى الخارج ، فتطفىء الشمعتين اللتين كانتا تنيران الغرفة ، ويسود الظلام .. ولا يلبث ان يفتح باب الشرفة ، ويلج خلاله شبح ، ثم يغلق الباب !

ويشعل القادم عود ثقاب ، فتتبين « رينا » على اللهب وجه رجل ، وتصيح : « من انت ؟ » . فيسرع باطفاء اللهب ، ويقول : « لا تصرخى والا اطلقت الرصاص ! » . واذ يسمعها تغادر السرير : « لا جدوى من الهرب ! .. اشعلى نورا لكى

اراك ! » .. فتشعل شمعة . **وعلى ضوئها ترى رجلا فى الخامسة والثلاثين ، ملطخا بالدم والوحل ، من أثر المعركة ..** ويحكم الرجل من الظواهر بأن رينا من طبقة راقية ، فيقول : « معذرة اذا كنت أزعجتك .. اننى صربى ، ولو انهم أمسكوا بى فسيقتلوننى ، ولكنى لن امكنهم من ذلك لو استطعت .. أتفهمين معنى ذلك ؟ »

رينا : لا أظننى أفهم .. ولكن بعض الجنود ــ فيما أعلم ــ يخافون الموت !

الرجل (باستخفاف) : كلهم ياسيدتى .. صدقينى ! .. ولكن ، اذا رفعت صوتك ..

رينا : فسوف تطلق الرصاص ! .. أتظننى أخاف الموت ؟

الرجل (فى خبث) : هبى اننى لم أقتلك ، فما الذى سيحدث ؟ .. ستقتحم كوكبة من فرسانكم الغرفة ،ليذبحونى كالخنزير .. ولكننى سأقاتل كالشيطان .. **فهل ترضين أن يكون مثل هذا الحشد فى غرفتك وأنت شبه عارية ؟**

ويرتفع اذ ذاك دوى طلقات فى الطريق ، ثم ضجيج تهشم الباب الخارجى للدار ، ووقع أقدام ، وصوت كاترين محتجة .. وتطرق لوكا باب مخدع رينا ، وهى تصيح فى جزع : « افتحى ياسيدتى والا حطموا الباب ! » . **وهنا يبدو على الرجل يأس طاغ ، فتتطوع رينا لمساعدته ، وتخبئه وراء الستائر المسدلة على باب الشرفة** ، ثم تفتح باب الغرفة ، وهى فى قميص النوم ، وهنا يدخل الضابط ، مستأذنا فى ان يفتش عن صربى هارب ، يظن انه مختبىء فى الشرفة . وبحركة بارعة ، تفتح رينا باب الشرفة ، متعمدة أن تقف امام الستائر التى كان الرجل مختبئا وراءها . وفى تلك الأثناء ، تلمح « لوكا » مسدسا كان الرجل قد تركه على الأريكة ، فتتبادل نظرات صامتة مع رينا !

وما ان ينصرف الجميع من الغرفة ، حتى يبرز الرجل من مخبئه قائلا : « لسوف أظل خادما لك حتى الموت .. كم أتمنى

ـ من أجلك ـ لو اننى رافقت الجيش البلغارى بدلا من الآخر ، فاننى لست صربيا ، وانما أنا سويسرى .. جندى محترف !»

★ ★ ★

• **ويجلس** الرجل على حافة السرير ، فتسير رينا الى الأريكة برشاقة وتكلف ، وتجلس عليها . ولكنها تقفز فجأة ، فيضطرب الرجل .. ثم يتبين انها فزعت لأنها جلست على مسدسه الذى كان قد ألقاه على الأريكة ، فيطمئنها الى انه خال من الرصاص .. واذ تسأله أن يملأه ، يقول : **« لاذخيرة معى ، فاننى دائما أحمل الشيكولاتة بدلا من الرصاص ، لأنها أنفع منه . .وقد أتيت على آخر واحدة منها منذ ساعة .. شد ما أنا جائع ! »**

وتدهش رينا لجندى يملأ جيوبه بالشيكولاتة فى ميدان القتال ، ثم تتناول الصندوق الذى كان فوق الصوان ، وتقدمه اليه . ولم يكن باقيا فيه سوى ثلاث قطع ، يلتهمها بشراهة. وتلقى الفتاة بالصندوق ، فيقفز الرجل فزعا !

رينا : بالرغم من اننى امرأة ، الا اننى فى مثل شجاعتك !

الرجل : انك لم تقفى تحت النار ، ثلاثة أيام دون نوم او راحة ، كما فعلت انا .. ان اعصابى منهارة .. هل تريدين أن تشاهدينى أبكى ؟ .. ما عليك الا أن تنتهرينى كما لو كنت طفلا وأنت مربيتى !

رينا : معذرة .. ليس جنودنا على هذه الشاكلة !

الرجل : بل كلهم على هذا النحو .. ان الجند نوعان : جنود قدماء مدربون ، وجنود مبتدئون .. ولو انك رأيت جنودكم لحكمت بأنهم مبتدئون ، والا .. فهل من الاحتراف ان تهجم كوكبة من الفرسان على موقع مزود بالمدافع الرشاشة ، وهم يدركون أن احدا منهم لن يصل اليه سليما ؟ .. اننى لم أصدق عينى ، حين رأيت ذلك !

رينا (فى لهفة) : اذن فقد رايت هجوم الفرسان ؟ !

الرجل (فى استخفاف) : رجل جمح به الجواد ، ولم يستطع السيطرة على زمامه ، فتبعه اثنان ، ثم الفرقة كلها . . **رجل جبان ، مبتدىء ، جر فرقته الى هلاك كان محققا . . كأن يصرخ بصوت جهورى ، وينقض على الهواء ، كما كان يفعل دون كيشوت !**

ولا تصدق «رينا» حديثه فتقول : « ولماذا اذن لم تصمدوا لهم ؟ » .

الرجل : لقد جاءنا « الشاويش » شاحب الوجه ، وقال ان الذخيرة التى جاءتنا لم تكن صالحة ، ولا سبيل الى غيرها قبل عشر دقائق . . أبدا لم أعان من قبل مثل هذا المأزق ، اذ لم يكن معى رصاص ما ، وكان « دون كيشوت » أمامى يجول ويصول !

واستاءت رينا اذ بدد آمالها فى خطيبها ، فقالت ساخطة : **« لن استطيع ابقاءك هنا بعد الذى قلته عن خطيبى ، فاخرج الى الشرفة واهبط كما جئت ! »** . ولكنه يجيب : « لست أقوى . . لقد تسلقتها وأنا خائف ، عندما كانوا يطاردوننى ! »

رينا : هيا ، لا تخف . . آه ، يا لك من جندى مسكين ، « جندى شيكولاتة » ! . . اهبط والا تعرضت للاعتقال !

الرجل (فى لهجة حالمة) : ان القبض على لا يعنى سوى الموت ، والموت نوم . . آه ، نوم ! . . اما الهبوط فنوع من العمل ، والتفكير . . انه موت يفوق الآخر عشر مرات ! (مفكرا) ولكن ، لا فائدة . . اطفئى الشمعة لأخرج ! وعليك أن تبتعدى عن الشرفة ، فانهم متربصون ، وسيطلقون الرصاص اذا رأونى!

ويتجه الى الباب ، ولكنها تمسك به قائلة : « لسوف يرونك ، فان القمر ساطع ! » . وتتشبث ببقائه ، فيتمنع . . ويزيدها تمنعه الحاحا ، فتطمئنه الى انه لن يصاب بسوء اذا مكث ، لأن أباها « ميجر » . . وينصاع أخيرا لالحاحها ، ويندمجان معا

فى ثرثرة جوفاء ، ثم يتثاءب الرجل قائلا : « والآن ، هل لك ان تخبرى والدتك بوجودى ، فليس مما يليق ان أبقى هنا فى السر مدة طويلة ! » .. وعند ما تعود رينا مع أمها ، تجدان الرجل مستلقيا فى سرير الفتاة ، وقد راح فى سبات عميق ، فتغمغم رينا فى اشفاق : « آه ، لقد نام ! » .. وتحاول كاترين ان توقظه ، فتهزه بخشونة ، ولكن رينا تمسك بذراعها قائلة : **« لا .. حبيبى المسكين مرهق ! »** ، فتهتف الأم فى دهشة : « حبيبك المسكين ؟ ! .. رينا ! »

الفصل الثانى

• **وترفع** الستار عن حديقة منزل الميجر بيتكوف — فى ٦ مارس سنة ١٨٨٦ — وقد بدت المائدة وعليها فضلات الفطور ، ووقفت « لوكا » الى جوارها تدخن سيجارة ، وتتحدث فى جفاء الى خادم ذى طباع هادئة ، هو نيقولا خطيبها ، الذى يحذرها من عجرفتها وتمردها على سادة البيت ، منذرا اياها بأنه لن يتزوجها اذا ظلت على هذه الحال . غير ان الفتاة تعيره بأنه لم يؤت الروح التى تجعله يحرص على كرامته أكثر من حرصه على ارضاء سادته .. أما هى ، فلا تكترث لرضائهم : **« اننى أعرف من أسرارهم ما يجعلهم يجبنون عن الاساءة الى ، لئلا أشى بهم ! »**

نيقولا : لو انك فتحت فمك لطردوك ، ولن تجدى من يعهد اليك بعمل ، فأنت لا تعرفين سيطرة أمثال هؤلاء القوم .. اتظنين اننى لا أعرف من اسرارهم شيئا ؟ .. **اننى لأعرف أمورا عن السيدة قد تدفع كثيرا فى سبيل اخفائها عن السيد .. وأعرف عنه هو مثل ذلك .. وأعرف عن رينا ما يكفل قطع كل علاقة لها بسرجيوس !**

لوكا : وكيف عرفت هذا ، وأنا لم أخبرك به ؟



وفى تلك اللحظة، يصل السيد بيتكوف عائدا من الحرب ، فيسرع نيقولا الى اخبار سيدته، بينما تهرع لوكا لاحضار القهوة .. وتقبل كاترين فى زينة بسيطة ، فترحب بزوجها فى تكلف وفتور ، ثم تسأله عن الحرب ، فيقول : «لقد انتهت ، وعقدنا صلحا فى بوخارست منذ ثلاثة أيام » .. ولا يلبث سرجيوس ان يصل هو الآخر ، فيرحب به الزوجان ، وتهنئه كاترين بما أبداه فى الحرب ، فتأخذه العزة بنفسه ، ويقول ساخطا :

« لقد كسبت المعركة بطريقة خاطئة ـ كما وصفها قادتنا الروس ـ فى حين أنهم يخسرون المعارك بطرقهم العلمية الصحيحة .. ومع ذلك فانهم يحظون بالترقيات ، بينما أظل أنا على حالى .. لقد انتظرت الصلح بفارغ الصبر ، لأقدم استقالتى ! »

ويبهت بيتكوف وكاترين ، ويحاولان أن يثنياه عن ذلك . وفى تلك الأثناء ، تقبل « رينا » ، فترحب بسرجيوس الذى لا يلبث أن ينهمك فى حديث مع بيتكوف، فيذكر هذا ان قواتهم لم تكن تعرف كيف تخوض الحرب .. وكذلك كانت قوات الصرب ، لو لم يستعن كل من الفريقين بالأجانب .. ويذكران فى حديثهما ضابطا سويسريا التقيا به ، وكان تاجرا أكثر منه جنديا ، وهو الذى أبرم صفقة تبادل الأسرى بين الفريقين

رينا : وهل فى جيش الصرب كثير من الضباط السويسريين؟

بيتكوف : لا .. كلهم نمسويون ، كما ان كل ضباطنا من الروس ! .. لقد كان هو السويسرى الوحيد الذى صادفته ،

ولن أثق بعده بسويسرى قط ، فقد خدعنا وحملنا على أن نسلمه خمسين من الرجال الاشداء ـ من الصربيين الأسرى ـ فى مقابل مائتين من الجياد المنهوكة القوى !

رينا (فى لهفة) : وما شكله ؟

سرجيوس : كان كالتاجر المتجول اذا ارتدى حلة عسكرية

بتكوف : سرجيوس ! .. قص على كاترين تلك القصة العجيبة التى رواها لنا صديقه .. قصة فراره !

سرجيوس (فى سخرية ومرارة) : آه ، حقا ! انها لقصة تفوق الخيال ! .. لقد كان فى الفرقة التى أغرت أنا عليها فهرب كغيره من أفراد الفرقة .. **وفيما كان رجالنا يطاردونه ، تسلق الى مخدع شابة راقها منه مسلكه الذى يشبه مسلك التاجر حين يغرى عميله ، فاستبقته معها ساعة ، ثم نادت أمها حتى لا يبدو فى تصرفها ما يشين .. وفتنت الأم بأخلاقه كابنتها** .. وفى الصباح ، خرج متخفيا فى معطف قديم لرب البيت الذى كان متغيبا اذ ذاك فى الميدان !

رينا (ممتعضة) : ان حياتك فى المعسكر قد غيرت أخلاقك ! .. ما كنت أحسبك تروى امامى مثل هذه الحكاية !

وتشايعها كاترين فى غضبها ، فيعتذر لهما سرجيوس . ولا يلبث بيتكوف ان يدعوه الى المكتبة ليبحثا بعض شئون الجيش ، ولكن كاترين تستبقيه ، وتستدرج زوجها الى داخل الدار ، ليخلو الجو للخطيبين اللذين لا يلبثان ان يتبادلا الغزل والمجاملة ، ثم يتفقان على الخروج للنزهة ، فتستمهل رينا الشاب ريثما تحضر قبعتها .. وفى غيابها ، تقبل لوكا على الحديقة ، فيغازلها سرجيوس ، ويمسك بذراعها قائلا : « لوكا .. أتعرفين ما هو الحب مع أبناء الطبقة العليا ؟ » . فتجيبه ـ وقد أخذتها الدهشة ـ بأنها لا تعرف .

سرجيوس : انه حب متكلف ، لا يستغرق المرء فيه فترة ، حتى يحتاج الى قسط من الراحة !

ولا تلبث الخادم ان تجد نفسها فى أحضانه ، فترجوه أن يدعها ، اذ لا يليق بالسيد ان يغازل خادمه . ولكنه ينظر اليها فى اصرار ، فتقول : « لنذهب اذن الى حيث لا يرانا أحد .. ألم يعد لديك ادراك ؟ » .. ومن ثم يتواريان خلف حظيرة فى الحديقة . وهناك تذكره الفتاة بخطيبته ، فيحاول ان يقبلها ، ولكنها تتحاشى قبلته قائلة : « **لا .. لست أريد قبلاتك ، فكل السادة سواء : أنت هنا تغازلنى من وراء ظهرها ، بينما تفعل هى مثل ذلك من وراء ظهرك !** » . ويفلتها سرجيوس ويقول : « اذا شئت ان يستمر حديثنا ، فأرجو ان تتذكرى ان السيد الراقى لا يحب ان يناقش شئون خطيبته مع خادمتها ! »

لوكا : ولكنى اشك فى ان يكون رأى السيد صائبا . لقد ظننتك رفعت الفوارق ، قبل ان تأتى الى هنا محاولا أن تقبلنى !

ويعودان الى حيث كانت المائدة .. وبعد فترة صمت ، يسألها عن الشخص الذى تخونه « رينا » معه ، فتقول : « لست ادرى ، فاننى لم اره ، وانما سمعت صوته من خلال باب مخدعها .. ولو انه عاد الى هنا ــ مرة اخرى ــ فانها ستتزوج منه قطعا ! » .. ويغضب سرجيوس فيخشن معها فى مسلكه ، ويفترقان على شقاق . واذ ذاك تقبل رينا متأهبة للخروج

* * *

• **ولكن** بيتكوف يصر على ان يخلو الى سرجيوس فى مكتبه ، فيعدل الخطيبان عن الخروج . وتوافى كاترين ابنتها فى الحديقة ، فتقول لها : « مأزق لطيف ذاك الذى اوقعتنا فيه ! .. تصورى التقاءهما بهذا السويسرى ، وسماعهما القصة كلها ! .. ان اباك لا يكف عن السؤال عن معطفه القديم ! » . فتغمغم رينا وهى شاردة البال : « يا للوحش الصغير ! »

كاترين : الوحش الصغير ؟! .. أى وحش صغير ؟



رينا : الذى ذهب وأنبأهما .. آه ، لو اننى رأيته الآن لحشوت فمه بالشيكولاتة ، حتى يستحيل عليه الكلام !

وتنصرف رينا، فلاتلبث لوكا ان تأتى فتخبر كاترين بأن ثمةضابطا صربيا يريد مقابلتها. وتدهش السيدة ، ثم تتبين انه السويسرى الذىلاذ بمخدع ابنتها ، فتأمر الخادم بأن تعجل باحضاره ، وان تغلقباب المكتبة ان كان مفتوحا .. وما ان يأتى ، حتى تعاجله قائلة :« كابتن بلونتشلى ، اننى جد سعيدة لرؤيتك ، ولكن عليكان تغادر البيت سريعا ، فقد عاد زوجى من الميدان ، وهو هنا معخطيب ابنتى ، واذا علما بالأمر فسوف تقع كارثة ،وستصبححياةابنتى فىخطر!.. اننىاناشدك — كسيد مهذب—ان تغادر البيت حالا ! »

بلونتشلى : حالا ، يا سيدتى الكريمة ، فانما جئت فقط لأعيد اليك المعطف .. وهو فى حقائبى بالخارج !

وتشكره وهى تسير به نحو الحظيرة لتخرجه من الباب الخلفى ، حتى لايراه احد .. وفى تلك اللحظة يأتى بيتكوف مهرولا على السلم، فتتهالك كاترين قائلة : « أوه ! يا للسماء! »

بيتكوف : ياعزيزى الكابتن بلونتشلى ، لقد رأيتك مننافذة المكتبة فجئت مسرعا .. لماذا أحضركهؤلاء الخدم الأغبياء الى هنا وأنا هناك فى المكتبة ؟ !

ويقبل سرجيوس ، فيهتف : « مرحبا بك ، يا صديقنا العدو ! .. لقد جئت فى وقتك .. اننا فى اشد الحاجة

اليك هنا ، فنحن نريد ارسال ثلاث فرق من الفرسان الى (فيليبوبوليس) ولا ندرى سبيلا الى ذلك ! »

★ ★ ★

• ويضع سرجيوس يده على كتف الزائر ، ويسير به نحو البيت ، وهو يبدى اعجابه البالغ ببراعته .. وما ان يضع بلونتشلى قدمه على أولى درجات السلم حتى تظهر رينا من داخل الدار ، فتبهت لرؤيته ، وتنطق فى غير وعى ولا ارادة : **« اوه ! .. جندى الشيكولاتة ! »**

ويجمد بلونتشلى فى مكانه ، بينما تستولى الدهشة على سرجيوس ، فينظر الى رينا وبيتكوف ، الذى ينظر — بدوره — اليه ثم الى زوجته .. وتبادر كاترين الى تدارك الموقف قائلة : « رينا ! .. ألا ترين ان معنا ضيفا ؟ » وتقدمه اليها ، فتهتف الفتاة : **« يا لغبائى ! .. لقد صنعت جنديا من الشيكولاتة ، فأتلف لى نيقولا ماصنعت ، اذ وضع عليه طبقا قبل ان يجف » .**

ويرجو بيتكوف الزائر ان يبقى فى ضيافتهم حتى يحين وقت رحيله الى سويسرا ، لأنه قد يحتاج الى خدماته .. وينضم اليه سرجيوس فى الرجاء ، فتلح عليه رينا — هى الأخرى — بحرارة ، ثم تقول : « كلنا نريدك .. فالواجب يقضى بأن تبقى ! »

الفصل الثالث

• **يرفع** الستار — فى هذه المرة — عن غرفة المكتبة ، وقد جلس بيتكوف على الأريكة ، تحف به زوجته وابنته ، بينما جلس بلونتشلى الى المكتب منهمكا فى الكتابة .. كان يصوغ الأوامر والتعليمات الخاصة بنقل الفرق الثلاث ، ليوقعها سرجيوس الذى جلس أمامه !

ويعود بيتكوف الى السؤال عن معطفه القديم ، فتتحداه كاترين ان تأتيه به فى مقابل قطعة من الجواهر تختارها

بنفسها . ثم تدعو نيقولا وتأمره بان يحضر المعطف، فلا يلبث ان يعود به ! .. ويكون بلونتشلي قد فرغ من الكتابة ، فيحمل سرجيوس الأوراق ويخرج بها ، كما تغادر كاترين وزوجها الغرفة .. **وتخلو رينا الى بلونتشلي فتطرى شكله الذى بدا مليحا وهو فى ثياب نظيفة . ثم تسأله عما اذا كان قد روى ما حدث له فى ليلة هربه لأحد ما ، فيجيب بانه لم يخبر به سوى صديق واحد يثق به ويأتمنه على سره .** واذا به يفاجأ عندما تقول له : « وما رأيك فى انه قص الحكاية على كل من والدى وسرجيوس يوم تبادلهم الأسرى ؟ »

وتثور رينا ، ولكنها تعود فتعرب عن رضاها عن اسلوبه فى الكلام معها .. ذلك الأسلوب البعيد عن الافتعال الذى تلقاه من كل من يكلمها ، والذى عودها أهلها عليه منذ صغرها بحجة انه من شيم ابناء الأسرات الراقية

ثم تقول : **« ولكن .. ترى ما الذى دار بخلدك اذ اعطيتك صورتى ؟ »**

بلونتشلى : صورتك ؟! ولكنك لم تعطنى صورا

رينا : تعنى انك لم تأخذها ؟.. لقد كانت فى جيب المعطف الذى لبسته عند رحيلك .. ألم تأخذها ؟

وتقبل لوكا – فى تلك الاثناء – حاملة رسالة باسم « بلونتشلى » ، فيفضها ، واذا بها تحمل اليه نبأ وفاة أبيه .. واذ ذاك يقول : **« لابد من ان ارحل فى أقرب فرصة، فقد ترك لى مجموعة من الفنادق الكبيرة ، التى يجب ان اعنى بها . هذا ما تركه لى .. يا للسماء ! .. سبعين ! مائتين ! أربعمائه ! أربعة الاف ! تسعة الاف وستمائة ! .. ما الذى افعله بكل ذلك ؟! »**

رينا : تسعة الاف فندق ؟

بلونتشلى: فندق ؟! .. انك لا تفهمين .. انه لأمر مضحك!

وتبقى رينا مغضبة لانه لم يحفل بها ، ثم تغادر

المكان مسرعة حتى لا ترى لوكا دموعها .. ويفد نيقولا فيعود الى محادثة لوكا عن وزاجها ، ولكنها تجبه فى غطرسة بالغة : « لن تكون سيد بيتي قط ، بل انك قد تصبح خادمى ! » .. وينصرف نيقولا محنقا . ولا يلبث ان يأتى سرجيوس ، فيسعى الى استرضاء لوكا ، ولكنها تصده فى دلال ، وتسأله عما اذا كان شجاعا ، ثم تشرح له ما تفهمه من معنى الشجاعة .. فهى الجرأة امام الناس « فلو اننى كنت امبراطورة روسيا ـ مثلا ـ واحببت رجلا من عامة الشعب ، لتزوجته دون أن أخشى الناس .. سأتزوج الشخص الذى أحبه مهما يكن أقل منى فى المكانة الاجتماعية .. ولو كان الفارق بينى وبينه يفوق ما بينى وبينك الآن ! »

سرجيوس : ولكنى خطبت امرأة أخرى

لوكا : لن تتزوجك هذه المرأة الأخرى ، فقد عاد الرجل الذى اخبرتك عنه.. **انها ستتزوج السويسرى** !

سرجيوس (مصعوقا) : السويسرى ؟!

لوكا : رجل يساوى عشرة امثالك .. أما أنت فستعود الى بعد ان ترفضك .. ولسوف ارفضك انا اذ ذاك !

سرجيوس : سأقتل هذا السويسرى ، وسأفعل بعدها ما أشاء معك !

لوكا : ولماذا لا نقول ان السويسرى هو الذى سيقتلك ؟.. لقد غلبك فى الحب ، فلماذا لا يغلبك فى القتال ؟!

سرجيوس : لن أكون جبانا بعد الآن ،ولن آتى لاداعبك من وراء ظهرها ، فاذا اخترت أن أحبك أنت ، فسأتزوجك على الرغم من بلغاريا كلها !

لوكا : سنرى اذا ما كنت تستطيع المحافظة على كلمتك ولكن خذ حذرك .. فانى لن أنتظر طويلا !

وما أن يأتى بلونتشلى ، حتى يعلنه سرجيوس غاضبا بانه يريد ان يبارزه ! .. وتقبل رينا بادية الجزع ، وتهتف :«هل

ستتقاتلان ؟ .. لماذا ؟ » .. ويجيب بلونتشلى بأنه لا يدرى السبب ، ولكنه لا يحفل ، فقد كان استاذا للمبارزة . ويشرح سرجيوس للفتاة الأمر ، وهو مغضب ، فيتهمها بأنها استقبلت فى مخدعها - ليلا - رجلا لا تعرف عنه شيئا .. **رجلا لا تدرى ان كان متزوجا أو أعزب . فتظن رينا ان بلونتشلى متزوج .** ويصيح هذا فى سرجيوس : « لقد استقبلتنى - أيها الغبى - ومسدسى فوق رأسها .. كان فرسانك فى أعقابى ، وكنت حريا بأن احطم رأسها ، اذا هى فتحت فمها بصرخة !»

ويصدم سرجيوس بهذا الايضاح ، فما فكر قط فى ان الامر كان على هذا النحو . ويدعوه بلونتشلى الى الاعتذار ، ولكنه يتساءل عما اذا كان قد جرى بينهما شىء فى تلك الليلة ، فتدرك رينا لتوها جلية الأمر ، وتصيح :

« لقد فهمت .. لابد ان لوكا هى التى اختلقت لك هذه القصة ، عندما كنت معها فى الصباح.. عندما لمحت فارسى البطل يحتضن خادمتى فى الحديقة .. انه يحملها على ان تتجسس على ، ويبادلها الحب والغزل ! »

سرجيوس : لقد دعوتنى غبيا يا بلونتشلى ، ويحق لك الان ان تدعونى جبانا ، فقد سحبت الدعوة الى المبارزة ! .. هلا سألتنى السبب ؟

بلونتشلى : وهل سألتك سببا عندما دعوتنى للمبارزة ؟

رينا : لست انت الجدير بالمبارزة الآن ، فانما غريمه هو نيقولا .. خطيب لوكا !

بلونتشلى : اوه ! .. دعونا من الشجار .. واين هذه الآنسة الأخرى ؟

فيفتح سرجيوس الباب فجأة ، واذا بها خلفة تسترق السمع . وتحاول رينا ان تسخر منها ، فتصيح فيها الفتاة : « ان حبى اقوى من كل حب شعرت به فى حياتك

أقوى من حبك لجندى الشيكولاتة ! » .. وتوشك ار، تهب على الغرفة زوبعة من الشجار ، لولا ان يدخل بيتكوف فجأة ، وخلفه نيقولا يحمل له معطفه القديم ، فتخطفه رينا منه متظاهرة برغبتها فى مساعدة ابيها على ارتدائه ، وتتمكن فى تلك الاثناء من سرقة صورتها من جيبه فتطوح بها الى بلونتشلى ، على مرأى من سرجيوس .. ويتحسس بيتكوف جيوبه - بعد ان ارتدى المعطف - ثم يبدى عجبه من ضياع صورة لرينا كانت فى جيبه ، وقد كتب عليها : **« من رينا الى جندى الشيكولاتة ! »**

ويخال بيتكوف ان سرجيوس هو المقصود ، ولكن هذا ينفى فى الحاح وسخرية ، فيقول بلونتشلى : « حسنا .. انا هو جندى الشيكولاتة ! .. لقد انقذت ابنتك حياتى ، بان قدمت لى الشيكولاتة ! » . ويدرك بيتكوف ان ابنته اختارت بلونتشلى دون سرجيوس ، فتقول الفتاة : « عندما كتبت هذه الكلمات ، لم اكن اعلم ان الكابتن بلونتشلى متزوج ! »

بلونتشلى : ولكنى لست متزوجا .. ولم أكن متزوجا فى أى يوم من الأيام !.

بيتكوف : هل تسمحى اذن باخبارى : أى هذين السيدين خطيبك ؟ .

رينا : لا أحد منهما .. فقد أصبحت هذه الشابة **(مشيرة الى لوكا)** محبوبة سرجيوس !

لوكا (منفجرة فى وجه سرجيوس) : لقد اهاننى الجميع هنا بسببك .. يجب ان تعتذر الى !

بلونتشلى : لا فائدة .. انه لا يعتذر أبدا !

لوكا : انه لا يعتذر لك ، لانك خصم مساو له . أما بالنسبة لخادمته الضعيفة ، فانه سيعتذر !

سرجيوس : أجل .. اننى اسألك العفو !

لوكا : وقد عفوت عنك ! (تقدم اليه يدها باستحياء ، فيطبع عليها قبلة ، بينما تتابع هى كلامها) **وهذا الاعتذار يجعلنى أقبل الزواج منك .. الا اذا تراجعت انت !**

سرجيوس : أتراجع ؟ ! .. أبدا .. انك لى !

وتفد كاترين على الغرفة ، فتفاجأ بهذا الوضع الجديد .. ويطلب بلونتشلى يد لوكا فتحتج كاترين لانه لا يملك شيئا ، فى حين ان سرجيوس غنى يقتنى فى حظيرته عشرين جوادا . فيقول بلونتشلى : « وما حاجتنا الى كل هذه الجياد ؟ هل سنفتتح سركا ؟ .. وعلى كل ، فاننى أصبحت مالكا لمائتى جواد ، وسبعين عربة ، وثلاثمائة خادم ، وفنادق كثيرة بكل معداتها .. فضلا عن منزل خاص ، ثم انى اجيد ثلاث لغات .. انظروا اذن أى رجل فى بلغاريا كلها يستطيع ان يقدم لكم مثل ما أقدم ؟ »

كاترين : حسن ايها الكابتن بلونتشلى ، ومادام اختيار ابنتى قد وقع عليك فانى ..

رينا (تقاطعها) : ان اختيارى لم يقع على احد ، ويستطيع السيد ان يحتفظ بكل املاكه لنفسه ، فلست اباع لمن يدفع ثمنا أكبر !

بلونتشلى : وهل تريننى طلبت يدك الا بعد ان التجأت اليك كشريد مطارد ، فاستضفتنى ، وقدمت الى يدك لأقبلها ، وفراشك لأنام عليه .. ألم تقدمى الى كل ذلك ؟

رينا : انى لم أقدمه لأغنى الرجال ، وانما قدمته لجندى الشيكولاته الذى اعجبت به !

بلونتشلى (مسرورا) : وانا مازلت جندى الشيكولاته !

وتسدل الستار

الخالدات



شهيرات النساء

عزيزى القارىء ..

فى اعداد سابقة ، قدمت لك فى هذا الباب من قصص حياة شهيرات النساء ، هذه السير : • فلورنس نايتنجيل • مدام كورى • ساره برنار • بيرينيس • كليوباترا • مدام دى ديفان ، وجوليا دى لسبيناس • كريستين ، ملكة السويد • راشيل • مارى باشكرتسيف • كاترين مانسفيلد • كاترين، امبراطورة روسيا ..

واليوم أقدم لك سيدة تعتبر من أول المجاهدات لتحرير المرأة، هى : سوسان انتونى ..

وفى الاعداد القادمة سأتبعها بسير اولئك اللائى تتوق الى معرفتهن من الخالدات


SUSAN B. ANTHONY
BY
HENRY & DANA
THOMAS
سُوسَان انْتونى
المرأة التى رفضت الزواج وتحدت المجتمع
لتحرر بنات جنسها من استعباد الرجل
للمؤرخين: هنرى ودانا توماس

كفاح المرأة فى سبيل حقوقها

◆ كان فوز السيدة « أمينة شكرى » والآنسة « راوية عطية » بعضوية مجلس الأمة المصرى ، حدثا من أهم الأحداث التى سيسجلها التاريخ لمصر فى نهضتها الحاضرة ٠٠ اذ أتيح للمرأة أن تساهم فى أهم سلطات الدولة ـ وهى السلطة التشريعية ـ لأول مرة فى العالم العربى ٠٠ بل ان المرأة المصرية سبقت بهذا النصر زميلاتها فى كثير من الدول الغربية والشرقية ٠٠ و « كتابى » اذ يحيى المرأة المصرية ويهنئها بهذا الفوز المجيد ، يقدم ـ فيما يلى ـ صورة للكفاح الذى شنته المرأة فى كل مكان ـ منذ بداية القرن التاسع عشر ـ فى سبيل حقوقها المدنية والسياسية

فتعال نستعرض معا ، جهاد « سوسان انتونى » ، التى كانت من أول رائدات الحركة النسوية عامة !

المتمردة الصغيرة

◆ لم تكن كغيرها من بنات جيلها ، فهى لم تعبأ يوما بما كانت تلقنها اياه معلمتها ، من تقاليد درج المجتمع على استنكار خروج الفتاة عنها فى سلوكها .. بل انهاكانت تضرب عرض الحائط بالتعاليم التى كانت تتلقاها فى « المعهد الدينى للاناث » ، لتتبع ما كان يوحيه اليها ذهنها .. وكانت حرية الفكر والرأى جريمة لا تغتفر فى المعهد !.. وكان المنهج الدراسى يقوم على ترويض الفتاة على الثالوث الذى مجدته تقاليد المجتمع : « الاخلاق ، والمحبة ، والفضيلة » ، ولكن « سوسان » أبت ان تفسر التواضع والاحتشام على انهما انصياع وطاعة عمياء ، ورفضت ان تأخذ المحبة على انها قبول للجور والتسلط ، واصرت على أن حرية الرأى والاعتزاز بالشخصية لا

يتناقضان مع الفضيلة فى شىء .. وكانت هذه الروح منها مثار نزاع لا يهدأ بينها وبين معلمتها فى « المعهد » !

على ان « سوسان » افادت من « المعهد » ومن المعلمة الحانقة عليها ، أمرين : اولهما تمثل فى أسلوب ادبى قوى .. كما تمثل ثانيهما فى اشتداد حنقها وتمردها على التقاليد التى كان المجتمع الأمريكى يكبل بها الأنثى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لا سيما فى أوساط « الكويكر » الذين كانوا يذهبون فى فهمهم للدين الى حد بعيد من التزمت !

ولعل « سوسان » ورثت روحها المتمردة عن أبيها الذى تحدى نظم طائفته ، بأن تزوج من فتاة من غير «الكويكر» .. فتاة كانت متحررة من التزمت ، فكانت تغنى وهى عاكفة على مغزلها ــ وهو عمل كان يعتبر نابيا فى ذلك العهد ــ وتحب الثناء والاطراء ، وتسهر فى حفلات الرقص حتى الفجر .. على انها لم تلبث ــ بعد زواجها ــ ان رانت الى الهدوء والوقار ، وتخلت عن روحها المتحررة لابنتها « سوسان » ، التى كانت ثانية اولادها الثمانية !

امرأة لها أعصاب رجل !

• **ولقد** قضت « سوسان » سنى عمرها الأولى فى حياة شاقة ، ولكنها ميسورة .. ومن عجب أن تجتمع المشقة واليسر فى شىء واحد ، بيد أن هذا هو عين ما جرى!

فقد كان أبوها يمتلك مصنعا صغيرا لغزل القطن ، .. وكان عمال المصنع وعاملاته يقيمون فى داره ، فكان على مسز انتونى ــ أم سوسان ــ أن ترعى أبناءها الثمانية ، وان تنظمهم وتدربهم فى الوقت ذاته ، ليعاونوها فى تدبير شئون البيت ، وخدمة النزلاء المفروضين عليه .. **ومن ثم فانها لم تعد تجد وقتا للغناء والرقص ، كما ان الأولاد لم**

يحظوا بما يحظى به أقرانهم عادة من فرص اللعب والمرح ، بل كانت حياتهم تسير وفقا لدستور تمثل فى ثلاث قواعد : « أداء الواجبات المنزلية ، وخوف الله ، وعقل اللسان » !

غير ان « سوسان » لم تكن تملك أن تعقل لسانها ، ولم يكن مقدورا عليها أن تفعل .. اذ فقد ابوها مصنعه فى سنة ١٨٣٨ ، فاضطرت « سوسان » الى أن تساهم فى ميزانية الأسرة ، واشتغلت ــ وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ــ بالتدريس لقاء دولارين فى الاسبوع ! .. بيد ان تصرفاتها وأحاديثها لطالباتها وعطفها على « الزنوج » ــ فى مجتمع كان شديد التعصب للعنصرية ــ أدت الى فصلها من عملها ، فلم يزدها ذلك الا ازدراء للبيض ، اذ كانوا فى نظرها رمزا للمجتمع المتعنت ! . . وعندما وجدت عملا فى مدرسة أخرى ، أوقعها الحظ وسط تلميذات خبيثات ، لم يكن يترددن على المدرسة لكى يكتسبن علما ، وانما التحقن بها لقتل الفراغ وللبحث عن التسلية واللهو بتدبير « المقالب » للمدرسات ! .. **ولكنهن سرعان ماوجدن ان « مس انتونى » كانت صنفا اخر من المدرسات ، فقد اقتطعت فرعا لدنا من احدى الاشجار ، ودفعت بزعيمة العصابة الى ركن من الفصل ، وراحت تروضها كما يروض المدرب جوادا نافرا جامحا ! . .** ومنذ ذلك اليوم ، اعتادت الطالبات ان يعاملنها باحترام بالغ ، وهن يتهامسن فيما بينهن : « يا لله ! .. ان لهذه المرأة أعصاب رجل ! »

تأبى ان تكون خادما شرعية

• **وكان** لها « عقل رجل » كذلك .. فما لبثت ان عينت رئيسة لقسم البنات بمدرسة « كانا جوهارى » العليا ــ بولاية نيويورك ــ وسرعان ما أحدثت اثرا عميقا فى نفوس أهل البلدة ، حتى لقد وصفها احد اعضاء مجلس

ادارة المدرسة بقوله : « **ان هذه (المرأة) هى اذكى (رجل) وفد على المدرسة ! »**

وتقدم عدد من كبار المزارعين فى البلدة ، يعرضون عليها الزواج ، لا لرجاحة عقلها وحدة ذكائها ، وانما لمتانة تركيبها الجسدى ، وما أوتيته من نشاط موفور .. ويؤثر عن احدهم – وكان يمتلك مزرعة بها ستون بقرة – انه عبر عن اعجابه بها بقوله : « يالها من امرأة بديعة .. انها لكفيلة بأن تحلب البقرات الستين وحدها ! » .. **ولكن «سوسان رفضت جميع الذين تقدموا لخطبتها قائلة : « شكرا .. لست ابغى ان اكون خادما شرعية لأى رجل ! »**

وهكذا تشبثت « سوسان » باستقلالها ، مطمئنة الى انها اوتيت من القوة والعزيمة ما يمكنها من أن تكسب عيشها ، دون حاجة الى رعاية رجل .. فقد كانت قوانين الزواج فى ذلك العهد ، تجعل من المرأة جارية للرجل ، مجردة من أية حقوق او حريات !

كان القانون يسوى بين المرأة والكلب

• **وفى** ذات يوم من أيام صيف سنة ١٨٤٨ ، قرأت « سوسان » فى الصحف عن مؤتمر نسوى عقد فى بلدة (سنيكا فولز) ، لبحث « الحقوق الاجتماعية والقانونية والدينية للمرأة » ، واذا بهذا النبأ يوحى اليها بالاتجاه الذى كانت تتوق الى ان توجه اليه طاقتها العارمة ونشاطها المتوقد ! . وسرعان ما انكبت على دراسة الأوضاع الاجتماعية والقانونية والدينية لنساء الولايات المتحدة **وشد ما هالتها الحقائق التى تجلت لها فى هذه الدراسة وروعتها فشعرت بروح التمرد تتأجج فى اعماقها كما لم تتأجج فى أى يوم من الايام !**

كان القانون الأمريكى – ككل قوانين الدول الأخرى ، فى

ذلك الحين ــ يضع المرأة فى مركز أدنى من مركز الرجل .. بل انه كان يذلها للرجل ، ولا يعترف لها بالحق فى ان تتصرف فى ثروتها الخاصة ــ اذا ما تزوجت ــ لأنها وثروتها كانتا ملكا للزوج !.. بل ان القانون لم يكن يسمح للزوجة العاملة بان تترك عملها ، ولا بأن تتصرف فى الأجور التى تتقاضاها ، ولا بأن تستأثر لنفسها بالتعويضات التى تدفع اليها لقاء ما تتعرض له من اضرار فى عملها . . **وانما كان الزوج هو صاحب التصرف المطلق فى زوجته وثروتها ، بل ومصيرها !.. والأنكى من هذا كله ، ان القانون كان يبيح للرجل التصرف فى الأولاد الذين ينجبهم من المرأة دون ان يجشم نفسه عناء الحصول على موافقتها ! . .**

وكان القانون يسف فى اذلال الزوجة ، بأن يسوى بينها وبين الكلب .. فقد نص على ان للزوج الحق فى ان يضرب زوجته ، وأولاده ، وكلبه ! . ولم يكن للزوجة الحق فى المطالبة بالطلاق من زوجها لقسوته عليها .. ومجمل القول ان المرأة الأمريكية كانت ــ الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ــ مجرد جارية للرجل !

.. تحاول اصلاح الرجال اولا !

• **وكان** من الطبيعى ان تقابل حركة النساء بثورة من السخط عندما حاولن أن يحطمن أغلال العبودية .. ولا عجب ، فالى جانب الامتيازات التى كان يستمتع بها الرجل كزوج ، كانت المرأة تتقاضى من أصحاب المصانع أضأل الأجور .. كانت تتقاضى عن حياكة السترة ما يعادل ثمانية قروش ، وعن « البنطلون » قرشين ونصف القرش ! .. ثم كان عليها ــ رغم هذا الغبن الجائر ــ أن تسلم الأجر الى زوجها ! .. وكم من أزواج كانوا يبددون عرق نسائهم فى الشراب وفى الانفاق على عشيقات ! .

ووجدت « سوسان » فى أبيها خير مشجع على ان تتجه الى المساهمة فى قضية المرأة .. **ولكنها حاولت ـ فى بداية الأمر ـ ان تعالج وضع المرأة فى المجتمع ، عن طريق اصلاح الرجل . فانضمت الى دعاة الغاء الرقيق ونادت بتحرير الزنوج ، كما انضمت الى دعاة منع المسكرات وتحريم الخمور** .. اذ كان الرق والخمر لعنتين حاقتا بالمجتمع الأمريكى فى اوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر،وكان القوم يسرفون فى الشراب الى درجة تذهل العقول ! .. ولعل ذلك كان « رد فعل » للتزمت الدينى الذى كان سائدا فى النصف الاول من القرن ..

وهكذا أقبلت « سوسان انتونى » على المساهمة فى « حركة الاعتدال » .. ولم تكن ـ حتى ذلك الحين ـ قد فكرت فى الحقوق السياسية للمرأة .. لم يكن حق المرأة فى التصويت قد خطر ببالها ، فقد كانت المرأة محرومة من حقوق اكثر لزوما وضرورة من ذلك . وكانت تعمل على الحصول على هذه الحقوق ، عن طريق اصلاح الرجل . ولكن الظروف كانت تدفعها الى اتجاه ايجابى فى سبيل المرأة. فقد حدث فى أحد مؤتمرات « حركة الاعتدال » ـ فى سنة ١٨٥٢ ـ أن نهضت « سوسان » لتدلى برأى فى الأمر الذى كان مطروحا للمناقشة ، واذا برئيس المؤتمر يأمرها ـ فى غلظة ـ بالجلوس ، لأن النساء لا يملكن سوى « ان يصغين وان يتعلمن ، فخليق بهن ان لايتكلمن » !

الثالوث النسوى

• وفى ذلك اليوم ، ولدت حركة « الجهاد النسوى » ! .. وكانت « سوسان » تدرك مدى امكانياتها وحدود طاقتها ، فلم تحاول ان تستأثر بالزعامة ، وانما اشركت معها زميلتين من المجاهدات !

كانت مطمئنة الى براعتها فى التنظيم ، ولـكنها كانت تدرك انها ليست كاتبة مبدعة، ولا خطيبة مفوهة، ومن ثم استكملت ما كان لديهـا من نقص ، بالتعاون مع متحمستين مثلها كانت احداهما تدعى «اليزابيث كادى ستانتون»، والأخرى «ارنيستين روز» .. **واشتهرت الثلاث فى بداية الأمـر باسم « الفرسان الثلاثة » ، ولكن هذا اللقب كان مطبوعا بطابع التـذكير ، وهو ما كن يأبينـه على أنفسهن ، ومن ثم أصبحن يعـرفن بلقب « الثالوث الانثوى » !**

واسـتطاعت المجاهدات الثـلاث ان ينظمن عملهن فى دقة عملية رائعـة .. فتولت « سوسان انتـونى » رسم الخطط للحملة ، بينمـا كانت « اليزابيث » تحيل الخطط الى كلمـات منمقة ، واضطلعت « ارنيستين » ـ ذات اللسان الذلق الذى جعلها تلقب ب «ملكة المنصات» ـ بالقاء المحاضرات والخطب .. وأخذت المجاهدات الثلاث يجسن خلال البلاد معا، فكن يعقدن الاجتمـاعات ، ويستثرن شجـاعة النساء وهممهن ، ويهدئن مخاوف الرجال ويحاولن اجتذابهم الى مناصرة الحركة !

هجوم عنيف من رجال السياسة والصحافة

• **ولكن** المعركة لم تكن سهلة، فقد هبت الصحافة تعارضهن، وأخذ أصحاب الأقلام يحاولون احباط الحركة عن طريق اثارة مخاوف الرجال وغيرتهم . فكتبت « النيويورك هيرالد » ـ فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٥٢ ـ تقول : « ما الذى تبتغيه زعيمات حركة المطـالبة بحقوق المرأة ؟.. انهن يرجون ان يملأن كافة المناصب التى يتوق الرجال الى ملئها ، فيصبحن محاميـات وطبيبـات وربانات للسفن وقائدات فى ميادين القتـال ! . . **وكم يكون الأمر مضحكا ، اذا نشرت الصحف يوما ان «فلانة» المحامية فوجئت بآلام المخاض وهى تترافع فى احدى القضايا !»**

واذ تبين الكتاب ان سخريتهم لم تنل من الحركة النسوية،

عمدوا الى الهجوم السافر المفعم بالسباب . . وتحالف رجال السياسة مع الصحافة فى هذا الهجوم ، فما ان تقدمت «سوسان» الى المجلس التشريعى لولاية (نيويورك) بالتماس تطالب فيه بمنح المرأة حقوقها ، حتى ثار الاعضاء ، وراحوا يستشهدون بالكتاب المقدس على ان المرأة أدنى مكانة من الرجل .. وصاح أحد الأعضاء فى حمية : « أفينتظر منا أن نلقى نظرة على مثل هذه المطالب الوقحة ، المشينة . . بل الاجرامية ؟!.. أفنطبع بطابع الصدق فرية كهذه التى تزعم ان الرجال والنساء .. سواء ؟ . . اننا نعلم ان الله خلق الرجال كممثل للجنس البشرى ، ثم أخذ من جنبه مادة صاغ منها المرأة .. ومن ثم فللرجل الرئاسة ! »

وذهب العضو فى ثورته الى حد التهديد بأن يسجن الرجال نساءهم ويصفدوهن بالاغلال ، اذا هن اصررن على المضى فى حركتهن !

نابليون الحركة النسوية !

• **ولكن** النساء أبين أن يرجعن عن عزمهن ، كما أبين أن تسجن أجسامهن أو عقولهن .. ومضت المجاهدات الثلاث قدما ، فما لبثت ان انضمت اليهن كثيرات من ذوات المواهب والكفاءة ، فاشتدت الحركة وقويت . . وذهبت الزعيمات فى تحدى الرجال الى درجة ان قصصن شعورهن، وارتدين ثيابا تشبه ثياب الرجال !.. وبهت الامريكيون !.. كيف تجرؤ المرأة على ان تتخلص من «جونلاتها» التقليدية ــ وكانت ترتدى سبعا منها ، الواحدة فوق الأخرى ــ ومن « الكورسيهات » والثياب الطويلة التى كن يجرجرن أذيالها على الأرض !

ولم تلبث النساء ان عدن الى ازياء الانوثة ، ولكنهن لم يتراجعن قط فى جهادهن ، بل ازددن قوة وعزما وصلابة .. **وكانت «سوسان» ترسم لهن الخطط وتعمل دائبة، دون هوادة**

أو لين ، حتى لقد أطلق عليها لقب ((نابليون الحركة النسوية))، اعترافا ببراعتهـا فى التنظيم ، ورسـم الخطط ، والقيـادة ، واحتمال العناء ، والصمود رغم كل هزيمة !.. وكانت المقاومة لاتزيدها الا ثباتا وشدة .. وقد استطاعت خلال هذا النضال ان تكتسب مرانا على الخطابة ، ولم تلبث ان أصبحت خطيبة لاتبارى ، مما جعلها تزداد اقبـالا على التنقل فى ارجاء البـلاد للدعوة للقضية ، ولحشد النساء فى الصراع المحتدم !

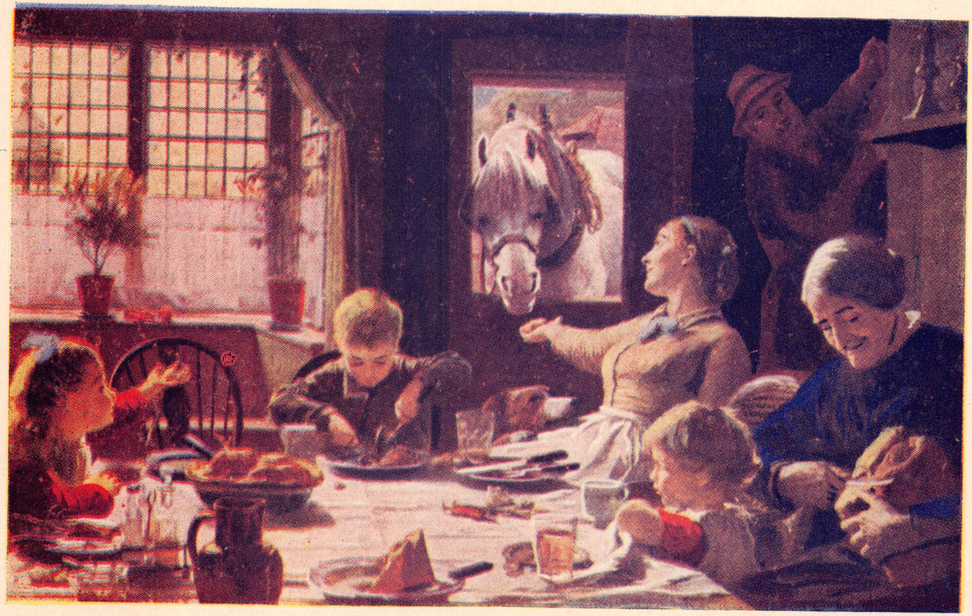
★ ★ ★

• **واذا** كانت « اليزابيث » و « ارنيستين » قـد استمرأتا الراحةفى بعض الاحيان، الا ان «سوسان» كانت تأبى ان تحذو حذوهن ، حتى لقد ضرب المثل بقدرتها على تحمل العناء !.. بل ان الناس أخذوا يرون فى ذلك نوعا من المعجزات الخـارقة

ومع ان صحتها لم تلبث أن بدأت فى التـداعى ، الا انها لم تشأ أن تهدأ أو ترتاح، حتى لقد كانت تقف علىمنصة الخطابة احيانا ، وهى منحنية الظهر لفرط الألم .. ولكن عزيمتها كانت تقهر المرض والأوجاع دائما !

وظلت « سوسان » أكثر من نصف قـرن من الزمن ، وهى تتصدر القوات المكافحة فى « الثورة النسوية » .. لا تكف عن التنقـل بين البـلدان ، ولا عن استثـارة همم النسـاء وجمع الاكتتابات لتمويل الحـركة .. **حتى أذهلت بأعمالها زميلاتها أنفسهن ـ لا أعداءها فحسب ـ فأصبحن يتطلعن اليها وكأنها ((ربة)) وليست من البشر !.. ربة اشتدت عليهـا وطأة الفقر و ((الروماتيزم)) ، فلم تقو على ان تطفىء شعلة روحها !**

وكان أغرب ما فى الأمر ، انهـا ظلت فى غمرة الفقر والمرض والمتاعب ، محتفظة بمرحها ، وفكاهتها ، ولسانها اللاذع الذى كان أقسى من السياط على أعدائها !



أحد أفراد الأسرة ! لوحة طريفة بمتحف ليفربول ، للفنان « فردريك كوتمان »

الزهور الأولى .. فى حديقة الحركة !

• **ولقد** قدر لسوسان ان تعيش حتى ترى البذرة التى بذرتها وقد نبتت وأزهرت . . ولكن الأجل لم يمهلها حتى ترى ثمارها . . ولقد حاولت مرة أن تدلى بصوتها فى الانتخابات، رغم ان القانون لم يكن يبيح للنساء التصويت ، فقبض عليها وسجنت . . **ولكنها لم تكن فى هذه المرة وحيدة ، بل كانت نساء الأمة بأسرها قد تكتلن خلفها ، وأجبرن الرجال على ان يقدروها ويحترموها ويتطلعوا اليها كعنصر من العناصر التى كانت تشكل تاريخ امريكا فى ذلك الحين**

والواقع انها ساهمت فعلا فى تشكيل التاريخ !.. فلقد كان لجهادها فضل كبير فى ان استطاعت نساء امريكا ان يحققن فى نصف قرن ما ظلت المرأة ـ فى كافة بلدان العالم ـ تتوق اليه منذ ألف عام .. وكانت أولى الزهرات الكبرى على شجرة الحركة النسوية ، هى كلية «فاسار» التى فتحت أبوابها ـ فى سنة ١٨٦٥ ـ لتمكين الاناث من تلقى الدراسات العليا ، وفقا لأرقى مناهج كليات الذكور .. واستكملت الزهرة الثانية نموها خلال السنوات العشر التالية، اذ أقبلت الجامعات على نظام التعليم المختلط،فأصبحت الفتيات يتلقين الدراسات الجامعية مع الفتيان ـ جنبا الى جنب ـ فى جامعات أربع عشرة ولاية . . ولم تحن سنة ١٨٨٠ ، حتى بلغ عدد المدارس الثانوية ـ التى تفتح ابوابها للجنسين معا ـ مائة واربعا وخمسين مدرسة !



واتاحت الدراسات العليا للمرأة دخول ميدان المهن الحرة .. فارتفعت نسبة النساء بين المشتغلين بالتعليم فى مدارس الولايات المتحدة ـ فيما بين سنتى ١٨٥٠ و ١٩٠٠ ـ الى أكثر من ٦٥ فى المائة .. وزحفت النساء ليحتللن أماكنهن الى جانب الرجال فى الطب ، والأدب ، والمحاماة .. وتتيه سنة ١٨٧٩ على سنى التاريخ فخرا ، بأنها السنة التى سمح فيها لأول محامية بأن تترافع امام المحكمة العليا !

على أن أهم الزهور جميعا، هى فوز المرأة بحقوقها المدنية. فقد ألغيت ـ حوالى نهاية القرن التاسع عشر ـ جميع القوانين التى كانت تحط من قدر المرأة المتزوجة، وتحد من حرياتها ..
فأصبح للمتزوجة حق الاشراف على ثروتها ، وحق الدخول فى المنازعات القضائية ، وحق الاحتفاظ بما تكتسب من أجور وحرية التصرف فيها، وحق حضانة أطفالها فى حالة الطلاق أو الانفصال بين الزوجين . . ولم يعد الزواج مبررا لاستعباد النساء ، وانما أصبح شركة تقوم على الاتفاق والرغبة المتبادلة بين طرفين متساويين !

كل هذه الزهور أينعت وتفتحت فى حياة «سوسان انتونى»، فقدر لها ان تمتع نظرها بمرآها

جسمها يذوب فى عقلها !

• **ومع** انه لم يقدر لسوسان ان تعيش حتى ترى الزهور تتحول الى ثمار، الا انها استطاعت ان تلمح بعض البوادر قبل موتها . . فان عددا من الولايات ـ وان كان ضئيلا جدا ـ قد أباح للمرأة حق التصويت فى انتخابات المجالس النيابية المحلية .. أما اباحة حق التصويت فى الانتخابات العامة للكونجرس الاتحادى ، فلم تتحقق الا فى سنة ١٩٢٠ . . بعد موت «سوسان» بأربع عشرة عاما !

على ان المجاهدة لم تكف عن الجهاد حتى آخر لحظات

حياتها .. وقد وصفتها صحيفة «شيكاغو هيرالد» ـ فى سنة ١٨٩٥ ـ بأنها **((ازدادت نحولا ، كما ازداد مظهرها اشراقا روحيا، وأصبحت بيديها الناصعتين، ووجهها النحيل،وعينيها الحادتين المتألقتين ، تبدو قريبة الشبه من البابا ليو الثالث عشر ..وكأنما يذوى جسمهاذائبا فى طاقتهاالعقليةالعظيمة!)) ..**
ولكن نحولها المطرد لم يحل بينها وبين الاشتراك فى تأليف كتاب من أربعة أجزاء عن « الحقوق السياسية للمرأة » ، بعد ان تجاوزت الخامسة والستين من عمرها ..ولا بينها وبين السفر الى لندن ـ فى سنة ١٨٩٩ ـ كمندوبة لنساء أمريكا فى المجلس النسوى الدولى .. ولا بينها وبين القيام بجولة فى اوربا ، وتسلق بركان «فيزوف» وهى فى الرابعة والثمانين من عمرها!

وقد حضرت ـ فى هذه الرحلة الأخيرة ـ مؤتمرا نسويا عقد فى المانيا ، فلم تكف عن القاء المحاضرات ، وكتابة المقالات ، وحضور الحفلات، والاشتراك فى المناقشات، وكأنها نبع لا ينضب!.
وقد سألها أحد المعجبين بها : ((كيف تستطيعين ان تحتفظى بمثل هذا النشاط ؟)) ، فأجابته بلسانها اللاذع : ((بتزعم قضية لا تلقى اجماعا من الناس !))

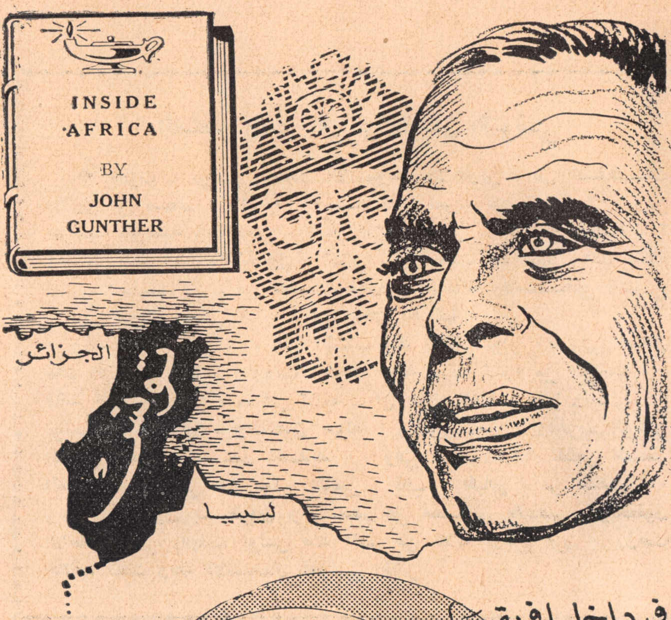
ومن طريف ما حدث لها اثناء اقامتها فى المانيا ، انها كتبت عددا من الخطابات الى أصدقائها فى أمريكا ، وأودعتها مظاريف كانت تحمل شعارات تعبر عن المبادىء التى كانت تناضل من أجلها، مثل : «ليس لحكومة أن تقوم دون موافقة المحكومين» .. فما كان من مصلحة البريد الالمانية ـ وكانت اذ ذاك مثالا للعقلية الرجعية الجامدة ـ الا أن ردت اليها الرسائل قائلة : « مثل هذه المشاعر لا سبيل الى مرورها خلال ادارة البريد الالمانية » !

.. هكذا انطفأت الشعلة !

• **وكأنما** احترم الموت نفسه هذه المجاهدة ، فلم يشأ ان

يوافيها الا وهى فى ميدان الجهاد .. فقد أقيم فى واشنطن ـ فى سنة ١٩٠٦ـ احتفال كبير، بمناسبة عيد ميلادها السادس والثمانين . وكانت قد أصيبت بشلل جعل الاطباء يلحون عليها بأن تلزم فراشها ، ولكنها ضحكت منهم ساخرة ، وقالت : « اذا كان لابد لمطرقة القضاء أن تهوى على رأسى ، فليكن ذلك وأنا قائمة على قدمى ! » . وهذا عين ما تحقق فى الواقع .. فقد ذهبت الى حفلة عيد الميلاد، ولم تحجم عن أن تلقى خطابا حماسيا ، وهى واقفة على قدميها ، ختمته بقولها : « اننى **لا أنشد مديحا ، وانما ارجو انصافا . . ولا بد للانصاف من ان يأتى فى النهاية . فان الاخفاق والفشل من المستحيلات » !**

وفى طريقها الى دارها انهارت . . وقدر للشعلة التى ظلت متأججة فى أعماقها ، ان تخمد وتنطفىء ، بعد ان أضاءت حياة المرأة ، بما اكتسبته لها ـ بفضل جهادها ـ من حريات ومن حقوق رفعتها من ربقة العبودية للرجل،الى درجة المساواة مع الرجل !



في داخل افريقيا

"كنت في تونس"

للصحفي العالمي: "جون جنتر"

العنصر الذى بقى فى الميدان التونسى

◆ قفزت (تونس) خلال الأسبوعين الأخيرين ، الى الصفحات الأولى من صحف العالم ٠٠ فما الذى تعرفه عن تونس ؟٠٠ وعن حركتها الوطنية ؟٠٠ وعن « الباى » ؟٠٠ وعن « الحبيب بورقيبة » ؟ ٠٠ كل هذه الأسئلة يحاول « كتابى » أن يجيب لك عنها ، فيما ينقله لك ـ فيما يلى ـ من معلومات أوردها الرحالة والصحفى والمؤرخ « جون جونتر » فى كتابه « فى داخل افريقيا »

ولقد نشر « جونتر » هذا الكتاب منذ ثلاثة أعوام ٠٠ وفى خلال هذه الأعوام الثلاثة ، وقعت أحداث هامة غيرت كثيرا من المواقف ٠٠ فلقد قال « جونتر » ـ فى كتابه ـ ان هناك ثلاثة عناصر رئيسية فى تونس : « الباى » والملتفون حوله ، والفرنسيون ، والحزب الوطنى المسمى بحزب الدستور الجديد ٠٠ وفى سنة ١٩٥٦ تقلص العنصر الفرنسى ٠٠ وفى ٢٥ يوليو الماضى ، غاب « الباى » عن الميدان ٠٠ وبقى الوطنيون يسيطرون وحدهم على مصائر بلادهم ، ويحققون الأمانى التى راودت تونس منذ أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، رزحت خلالها تحت ربقة الاستعمار الفرنسى الجائر

الزيتون ٠٠ ذهب تونس الأسود

◆ **تسيطر** (تونس) على العنق الضيق الذى يتوسط البحر الأبيض المتوسط ، ويقرب بين ساحله الشمالى وساحله الجنوبى ، حتى ان (بيزارتة) ـ القاعدة البحرية التونسية ـ لاتبعد عن (صقلية) بأكثر من مائة ميل ٠٠ ومن ثم فان القطر التونسى كان مثار نزاع بين فرنسا وايطاليا فى عهد موسولينى. **أما اليوم، فان تنازع القوى يضم عناصر جديدة تمثلت فى الأمم المتحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والعالم العربى ٠٠ كلها تدخل اليوم فى الصراع المباشر الذى يدور بين فرنسا والوطنيين التونسيين**

ومع ان تونس أصغر حجما من مراكش ، الا انها تفوقها ثراء فى الميدان الزراعى ، وان كانت ثروتها المعدنية أقل قدرا. وتعتمد ثروتها على القمح والكروم والفوسفات والفلين والزيتون .. وهناك قصة قديمة تقول أن الفلاح التونسى يهتف ، كلما جنى زيتونه : « هذا هو ذهبى » ! .. ولا تبلغ نسبة الفرنسيين المتوطنين فى تونس ، ما هى عليه فى الجزائر

والعنصر الأساسى فى سكان تونس ، هو العنصر العربى ، وان كانت ثمة آثار باقية من قبائل «البربر» .. وتمتاز هذه الدولة على سواها من دول شمال أفريقا بوجود « طبقة وسطى » - بورجوازية - قوية، كما ان تونس تفوق زميلتيها - مراكش والجزائر - فى صبغتها الغربية ، وفى تقدمها .. ويزداد انحسار الحجاب عن وجوه نسائها - فى المدن الكبرى - باطراد .. كذلك تمتاز تونس بأنها لاتعانى من وجود طبقة قوية متسلطة من السادة الاقطاعيين ، ولا من وجود طبقة راسخة من أبناء القبائل واصحاب النعرات القبلية

الكل يشتغلون بالحركة الوطنية

• **ولقد** ساهمت كل هذه العوامل فى جعل الحركة الوطنية التونسية تعتمد - اكثر مما تعتمد مثيلتاها فى مراكش والجزائر - على عناصر متعلمة ، وعلى أسس ومبادىء واضحة .. فان فى تونس طبقة من خيرة المثقفين ، تعلم تماما ما تبغى، ومن ثم فان فرنسا لم تستطع ان تتجاهل الحركة الوطنية التونسية . . **ولم أكد أقضى بضعة أيام فى تونس ، حتى تساءلت عما اذا كان بين التونسيين فرد واحد غير مشتغل بالقضية الوطنية ، فجاءنى الجواب فى سخرية مريرة : « ليس هناك سوى رئيس الوزراء ! » .. ذلك لأن الرئيس اذ ذاك - وهو سلف السيد الحبيب بورقيبة - كان يحاول ان يتعاون مع فرنسا ، وان كان يصدر فى ذلك عن وطنية**

وتكاد تونس تعادل انجلترا فى الحجم ـ وتبلغ مساحتها ٤٨١٩٥ ميلا مربعا ـ وتضم ثلاثة ملايين وستمائة ألف نسمة، منها مائتان واربعون ألفا من الأوربيين . . ونصف البلاد صحراء .. وتعتبر مدينة (تونس) ـ العاصمة ـ أكبر مدن القطر التونسى، وقد ذكرتنى بمدن الشرق الأدنى، كبيروت.. بل انها بدت لى وكأنها صورة مصغرة من القاهرة ، تشوبها مسحة فرنسية . ذلك ان تونس متأوربة ـ أى مصطبغة بالصبغة الأوربية ـ وليست أوربية ، فهى تحتفظ بالروح الشرقية ، وهى ـ بالتالى ـ أقرب ما تكون الى المدن التركية منها الى المدن الاسلامية المحضة

كانت مورد الغذاء لروما

• **وعندما** يقول الناس ان (شمال افريقيا) كان مورد القمح والغلال لروما ـ فى عهد الدولة الرومانية ـ فليس من شك فى انهم يقصدون بذلك (تونس) .. **وقد كان اسم هذه الدولة فى عهد الرومان (افريقيا) ، ولا يزال الوطنيون يسمونها اليوم (افريقية)**

وقد يقال : اذا كانت تونس والبطاح المحيطة بها من الخصب بحيث انها كانت تغذى روما بغلالها ، فلماذا لايضاعف انتاج هذه المنطقة فى العصر الحاضر؟.. ولماذا لاتستصلح الصحراء؟.. واذا كان الرومان قد استطاعوا ان يرووا الصحراء ، فلماذا لانستطيع نحن ؟.. وهناك عدة اسباب،منها ان الرومان كانوا يمتلكون موارد لا حصر لها من الأيدى العاملة ممثلة فى العبيد، ومنها ان عدد السكان الذين كانت روما تعولهم فى اوربا لم يكن كبيرا.. **والواقع ان تونس تنتج اليوم من القمح ما يعادل انتاجها فىعهد الرومان عشرين مرة ، ولكن كل هذا المحصول ـ واكثر منه ـ يستهلك محليا.** ولا انكار فى ذلك لما فعله الرومان من عجائب فى تونس ، ومن الخرائط الجغرافية التى لاتزال

مستخدمة ، خرائط رسمت على نسق خرائط الرومان خطا بخط ، مبينة خير المناطق لحفر قنوات الرى ولزراعة الزيتون

ولا بد أن الغابات كانت تحيط بالجزء الشمالى من القطر التونسى ، فيما قبل عهد الرومان ، ولكن عوامل كثيرة متباينة تحالفت على محو هذه الغابات العتيقة ، وعلى تحويل الأرض الى صحراء .. ويعلق كثير من الخبراء آمالا على امكان تحويل هذه الصحراء الى أراض منتجة مرة اخرى

« الباى » الذى لايحسن القراءة والكتابة

• **وقليل** من ذوى النفوذ فى العصر الحديث ، من يحتفظ من مظاهر وصفات القرون الوسطى بالقدر الذى يحتفظ به « باى تونس » . فهو – فى الواقع – ينضح بصفات العهود المظلمة . لا الأوربية منها ، بل الاسيوية ! .. ومن المصادفات انه ذو طبع لطيف، ولولا ذلك لكان من طراز الحكام الاتراك المستبدين السفاكين الذين كانوا يعيشون فى القرن الثالث عشر . ولا بد ان هذا السيد المسن – الذى ولد فى سنة ١٨٨١ – هو آخر عاهل بقى فى الدنيا ممن يقتنون فرقة من الاقزام المهرجين لتسليته !.. ومن الهوايات التى يشغف بها « الكيمياء » ، كما انه مفتون حقا بعلم الفلك . **ومع ذلك فان محصوله العلمى لا يمكن أن يكون راقيا ، اذ أنه لايعرف أية لغة غربية ، بل ان لغته العربية بدائية !.. ولقد سألت أحد المسئولين الفرنسيين عما اذا كان « الباى » يلقى « خطاب عرش » فى الافتتاح السنوى للدورة البرلمانية ، فكان جوابه : « هراء ! .. كيف يتسنى له ذلك وهو لايستطيع ان يقرأ أو يكتب ؟! » .. ويقال انه يستعمل خاتما من المطاط يحمل اسمه ، لأنه لايحسن التوقيع !**

ومما يقال أن «الباى» بدأ حياته عاملا يدويا ، ومن ثم فهو لايزال يهوى الحرف اليدوية ، وفى قصره آلاف الساعات التى

لاينفك يعبث بها ، فيفكها ثم يعيد تركيبها. وهو يشبه نسخة شرقية من القيصر غليوم ، امبراطور المانيا السابق.. ولو قدر لايزنهاور ان يتقاضى ـ عن رئاسته للجمهورية ـ نسبة من ميزانية امريكا تعادل تلك التى يتقاضاها «الباى» من ميزانية بلاده، لبلغ المرتب السنوى لايزنهاور ١٢ مليونا من الدولارات!

وليس «الباى» ملكا فى الواقع، وانما هو «عاهل» او «صاحب السيادة» ، ويعتبر ـ حسب التعبير الفرنسى الرسمى ـ «صاحب مملكة تونس ، وصاحب السيادة الفعلية» . وقد تولى «سيدى محمد الأمين باشا» الحكم فى سنة ١٩٤٣ ، عندما خلع سلفه ـ «محمد المنصف بك» ـ عن الحكم عنوة فى الحرب العالمية الثانية.. **وينحدر «الباى» من أسرة يونانية أو كريتية ، حكمت تونس منذ سنة ١٧٠٥، حكما متواصلا..** وهناك ١٦٠ فردا من أبناء الأسرة الحاكمة ، كانوا ـ بحكم مركزهم ـ محرومين من أن يشتغلوا بأى عمل ، بل لابد من ان يعيشوا عالة على الدولة !

وللباى الأخير زوجة واحدة ، أو ان هذا هو المعروف .. وهى زنجية ، ويقال انها تنحدر من أصل متواضع ، وانها نشأت فى كوخ من الطين . وقد انجبت للباى تسع بنات وثلاثة أولاد .. وقد تزوجت احدى البنات من الدكتور «بن سالم» الذى كان وزيرا للصحة ، وكان من الوطنيين المعروفين .. وقد اعتقله الفرنسيون فى سنة ١٩٥٢ . كما اتهمت الأميرة ـ زوجته ـ بأنها كانت عضوا فى منظمة تمد الثائرين بالأسلحة !

.. لو ان فرنسا كانت مخلصة ؟!

• **ولم** يكن الفرنسيون يولون «الباى» اعتبارا يذكر ، ولكنهم كانوا بحاجة اليه ، تظاهرا منهم بأن تونس تستمتع بالسيادة الذاتية !

ويزهو الفرنسيون بالأعمال التى حققوها فى تونس منذ

معاهدة (باردو) فى سنة ١٨٨١ ، واتفاقية (المرسى) فى سنة ١٨٨٣ . ومع ذلك فان تونس أوشكت أن تتعرض لحرب أهلية .. لماذا ؟ .. لأن الوطنيين التونسيين لايرون فى هذه الاعمال الكفاية. ولعل الدوافع الاول لذلك ، هو عامل نفسى.. **فان الفرنسيين لايحبون التونسيين ، ولا يملكون أن يكبحوا أنفسهم عن معاملتهم بامتهان وعدم اكتراث !.. ومن المعرقلات لمشروعات الاصلاح ، عدم توفر الأموال . ولكن فرنسا كانت تستطيع ان تفعل الكثير من أجل تونس - فى ميادين الاصلاح التى لاتتطلب أموالا طائلة - لو انها كانت راغبة حقا فى تحسين العلاقات..** وكان بوسعها ان تدع العلم التونسى يظهر على العلم الفرنسى فى مناسبات اكثر ، وان تسمح للأمم المتحدة بمزيد من المساهمة فى مشروعات الاصلاح فى تونس ، وأن تسمح للصحافة التونسية بمصادر أخرى للأنباء الى جانب المصادر الفرنسية ، فقد كانت الوكالات الصحفية الباريسية تحتكر توزيع الأنباء .. كان بوسع فرنسا أن تضاعف من الاهتمام بالتعليم المهنى ، وأن تخفف من قيود «الفيزا» التى تجعل من المستحيل على معظم ابناء الدول الاسلامية الأخرى - مثل مصر - أن يزوروا تونس .. وكان بوسعها أن تدرس اللغة العربية - كما كانت تدرس الفرنسية - فى مدارس الدولة، وأن تمنح التونسيين مزيدا من المناصب غير السياسية ، كمنصب مدير الآثار ، الذى كان وقفا على الفرنسيين بحكم القانون !.. كان بوسع فرنسا أن تعطى التونسيين مزيدا من المناصب الحكومية ، وأن تدعهم يتدربون على علاج المسائل الادارية .. وكان بوسعها أن تعلن نصيب التونسيين فى العمل على الرقى بالبلاد - كما اعتادت أن تعلن نصيب فرنسا - وان تعلن بجلاء أن حكم القوة مذهب أصبح الفرنسيون أنفسهم يدركون أن الزمان قد عفى عليه !

محاولات فرنسية لتهدئة الخواطر

• **ولقد** أعلن « شومان » فى أواخر سنة ١٩٥١ — وكان وزيرا لخارجية فرنسا — أن هدف السياسة الفرنسية هو تحقيق الحكم الذاتى «الداخلى» فى تونس ، ولكنه لم يحدد تاريخا، ولا عين الخطوات، ولا استعمل كلمة «الاستقلال»!.. ومع ما لاقته فرنسا من ضغط ، وما تعرضت له حكومتها من معارضة داخلية لسياستها ، من الفرنسيين أنفسهم .. **مع كل هذا فان من المحقق أن ثمة أمرين تأبى فرنسا ان تنزل عنهما ما لم تغصب على ذلك بالقتال : وأولهما هو الاشراف على السياسة الخارجية لتونس .. أما ثانيهما فيتمثل فى المنشئات البحرية الهائلة فى (بيزرته) !**

وعندما تولى « منديس فرانس » رئاسة الوزارة الفرنسية — فى سنة ١٩٥٤ — طار بنفسه الى تونس ، فى أغسطس من ذلك العام ، ووعد بتحقيق الحكم الداخلى فى تونس فورا ، فتالفت وزارة تونسية خالصة ، تولى رئاستها السيد طاهر بن عامر — وهو من الوطنيين المعتدلين — كما اشترك فيها ثلاثة من أعضاء الحزب الدستورى الجديد ، وهو زعيم الأحزاب الوطنية وأشدها اثارة للخواطر .. وكانت هذه خطوة كبيرة جدا من جانب الفرنسيين ، فخف التوتر السياسى فى الحال .. وفى ابريل سنة ١٩٥٥ ، تسنى الوصول الى اتفاق محدد بشأن الحكم الداخلى !

الفرنسيون صادروا جميع الحريات

• **وترجع** الحركة الوطنية التونسية الى سنين طويلة **وقد أنشىء أول حزب وطنى ، بالمعنى الحقيقى ، باسم «الدستور» . ثم انفصل عنه فريق من المتحمسين — حوالى سنة ١٩٣٠ — وأنشأوا «حزب الدستور الجديد»**. ولكن الفرنسيين اعتبروا

هـذا الحزب وكافة الجماعات الوطنية الاخرى خارجة على القانون ، فلم يعد لحزب الدستور الجديد وجود قانونى منذ سنة ١٩٣٨ حتى سنة١٩٥٤ ، عندما رد اليهمنديس فرانس اعتباره القانونى .. ولكن عدم شرعيته لم يحل دون اشتراك عدد من اعضائه فى الوزارات التونسية قبل سنة ١٩٥٤ !

ومعظم التونسيين المشتغلين بالحركة الوطنيـة ممن تعلموا فى باريس . وهم على ارتباط فكرى وثيق بمصر .. وبالرغم من طول عهد الاحتلال الفرنسى لتونس ، فان البلاد لم تشهد أية انتخابات عامة ، كما انالحريات المدنية لم تكن معروفة .. **فلم تـكن هناك هيئـة تشريعية منتخبة ، ولا كانت حريات الصحافة والخطابة والاجتماع قائمة..وكان كل امرىء يدرك - كقضية مسلمة - ان خطاباته تفتح قبل ان تصل اليه .وكان ثمة ٦٠٠٠ سجين سياسى ،فى معسكرات للاعتقال بالصحراء !**

وتمتاز الحركة الوطنيـة التونسية بميزتين رئيسيتين : (١) انها تتحالف تحالفا وثيقا مع أحسن وأقوى منظمة نقابية فى شمال افريقيا ، و (٢) انهـا اوتيت زعيما حقيقيـا ، هو الحبيب بورقيبة .. وهو وطنى صحيح ، ومن الممكن تشبيهه بدون مغالاة ، بهوشى منه - وان كان غير شيوعى - أو نهرو

الفرنسيون يشهدون بأن « بورقيبة » خصم شريف

• **وبورقيبة** فى حوالى الخمسين من عمره ، وهو محـام تعلم فى فرنسا ، وقد كان مؤسس حزب « الدستور الجديد» وبالتالى رئيسه . وقد قضى حياته بين النفى عن بلاده والجهاد القومى . ففى سبتمبر سنة١٩٣٤ أقصى الى الصحراء الكبرى، ثم أفرج عنه فى سنة ١٩٣٦ ، عندما تولت الجبهة الشعبيـة الحكم فى فرنسا . وما لبث أن سجن فى سنة ١٩٣٨ ، عندما حل حزب الدستور الجديد ، وفى اثناء الحرب العالمية الثانية ، احتل الألمان تونس من نوفمبر سنـة ١٩٤٢ الى مايو سنـة

١٩٤٣ ، فأفرجوا عن بورقيبة . ومع أنه تحدث عن حرية تونس فى « اذاعة بارى » الايطالية وغيرها ، الا أنه لم يكن من أعوان المحور الحقيقيين .. بل ان الفرنسيين أنفسهم — وهم **أكثر الناس عداء له — يشهدون له بالأمانة وشرف الخصومة ..** على انه اعتقل مرة أخرى عندما استرد الفرنسيون سلطانهم فى تونس ، ولكنه ما لبث أن هرب واتجه الى القاهرة

وفى أوائل سنة ١٩٥٢ ، عاد « بورقيبة » الى تونس ، فقبض عليه مرة أخرى ، بعد خطاب مهيج للرأى العام ، الى جانب أنه كان يضغط على «الباى» لكى يلجأ الى الامم المتحدة يسألها التدخل فى القضية التونسية . وقد نفى بورقيبة الى جزيرة تدعى (لاجاليت) ، تقع شمالى (بيزرته) بأربعين ميلا . على ان فرنسا ما لبثت أن رأت أن هذا المنفى قريب من تونس ، فأرسلت بورقيبة — فى أوائل سنة ١٩٥٤ — الى جزيرة (جروا) ، القريبة من ساحل (بريتانى) ، حيث ظل معتقلا حتى سمحت له وزارة « منديس فرانس » بالانتقال الى (شانتيى) — على مقربة من باريس — حيث مكث فترة قبل أن يعود الى تونس

ويمتاز « بورقيبة » بأنه زكى مثقف ، وخطيب قدير على اشعال مشاعر الجماهير . وهو شديد العداء للشيوعية .. كما انه معتدل فى البرنامج السياسى الذى وضعه لحزبه ، وان لم يكن هذا الاعتدال على حساب قضية بلاده واستقلالها .. ويعتقد التونسيون انه لا محيص من ان يصبح اول رئيس وزراء لتونس الحرة



عالم الغد

رحلات إلى مستعمراتنا فى الكواكب

على "سفن الفضاء"

للباحث الإنجليزى البروفيسور "ا . م . لو"

تلخيص : الدكتور ناجى يسى

الى أين يسوقنا هذا التقدم الصناعى ؟!

◆ منذ مائة عام فقط ، كانت القاطرات - ثم السيارات - عملا من وحى الشيطان ، فى نظر الناس · فقد خيل الى أهل ذلك الجيل ، ان السرعة التى كانت تجرى بها هذه المخترعات ، عمل خارق يفوق طاقة البشر ·· ولكن هذه السرعة تضاعفت مرات ومرات ، ثم طغى جنون السرعة على الانسان ، فترك الأرض بما فيها من عقبات وعراقيل ، وانطلق فى الجو ·· ولكن جنون السرعة ظل مطردا ، فدفعه الى اختراع الطائرات التى تسبق الصوت ، والتى تحلق فى أعلى طبقات الجو ·· وهزه هذا الانتصار ، فبدأ يتطلع الى الوصول الى كواكب السماء ·· ترى ما الذى سيراود فكره ، لو انه حقق هذه الأمنية ، ووصل الى القمر ؟!

ان الباحث العالم « ا· م· لو » ، يحاول - فى هذه الحلقة من كتابه « عالم الغد » - أن يتمشى مع تطورات العلم والصناعة ، ليرسم لنا صورة لما يتوقع أن يصل اليه الانسان فى ميدان المواصلات

تاريخ المدنية يرتبط بالمواصلات

◆ **استعرضنا** فى الحلقة السابقة ، ما ينتظر فى المستقبل من تطورات فى انتاج القوى المحركة والآلات ·· على ان المدنية لا تعتمد على انتاج الآلات فحسب ، وانما هى تعتمد ايضا على بعث الحركة فيها وتسييرها · ولعل وسائل النقل والمواصلات هى فى مقدمة مانتناوله فى هذه الناحية ، فان تاريخ المدنية يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ المواصلات ·· ولولا ما تيسره الطائرات والقطارات والسيارات من وسائل لنقل المواد الخام والسلع المصنوعة ، لما تسنى للصناعة ان تبلغ ما بلغته من نمو ، ولماتت المراكز الصناعية التى تعتمد على ملايين من العمال الذين لا يستطيعون اليها وصولا - فى كل يوم - الا بوسائل المواصلات

ويتوقف مستقبل النقل البرى على الطرق .. فمن العجيب حقا ، ان السيارات الحديثة لا تزال تعتمد على طرق كانت منشأة – فى الأصل – لوسائل المواصلات التى كانت تجرها الدواب .. **وما لم تصمم طرق جديدة خاصة للسيارات المطردة السرعة ، فلن يتسنى للعالم حل مشكلة الطرق ، او بالاحرى مشكلة الحوادث والعراقيل التى ترتبط بالطرق الحالية ، وتعطل سرعة السيارات الحديثة .** لذلك فمن المنتظر أن يحرم على المشاة والدراجات والدواب ، المرور على طرق السيارات .. بل ان هذه الطرق ، قد تقسم الى مسالك لمختلف معدلات السرعة ، بحيث لا يجوز للسيارة أن تسير فى أحد هذه المسالك ، الا بالسرعة التى حددت للسير فيه !

التليفون فى سيارة الغد

• **ولا بد** للسيارات من أن تتطور فى القريب ، بحيث تحل « التوربينات » محل المحركات العادية ، لتصبح الحركة أكثر انسيابا وسهولة .. كما أن من المرتقب أن يهتدى العلم الى انواع جديدة من الوقود ، تتيح للمحركات كفاءة عالية .. وليس من الاغراق فى الخيال ، أن نتوقع وقودا يمكن السيارة من ان لا تستهلك اكثر من جالون واحد فى كل مائة ميل على الأقل ! .. بل ان الوقود الذرى يوشك أن يصبح متوفرا !

أما شكل السيارة – الذى ظل حتى الآن مرتبطا بشكل المركبات القديمة التى كانت تجرها الدواب – فسيتطور تدريجيا لتحقيق سرعة أعلى ، وراحة أوفى . **ولن يأتى عام ١٩٩٠ ، حتى تكون المحركات الأمامية و « الرفارف » الجانبية قد زالت وتلاشت . كما ان ازدياد الاتجاه الى ادخال أسباب الترف على وسائل المواصلات ، سيجعل وجود التليفون فى السيارة والقطار من الامور العادية !**

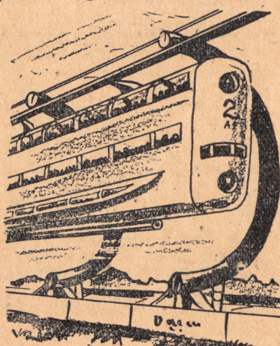
ولقد تنبأ الكثيرون – عند ظهور السيارات ، فى مستهل

هذا القرن — بأن القطارات وشبكة الاندثار . ولكن ما اثبته التجارب من مقدرة القطارات على نقل الاحمال الثقيلة ، يوحى ببقاء هذه الوسيلة من وسائل النقل . واذا كان من غير المحتمل انشاء خطوط حديدية جديدة فى المناطق المتقدمة صناعيا ، الا ان ثمة مجالا لانشاء آلاف الاميال منها فى بعض المناطق التى لا تزال تسعى للنهوض ، فى آسيا وافريقيا !

الصراع بين القطار والباخرة والطائرة !

• **ولسوف** تنزع اكثر البلاد الى كهربة خطوطها الحديدية الرئيسية ، كما سيعمم استخدام قاطرات «الديزل» قاطرة الغد الكهربائية ، والقاطرات «التوربينية» لنقل البضائع وللمسافات الطويلة .. على ان امكانيات الخطوط من شأنها أن تحد من سرعة القاطرات ، ومن ثم فمن المرتقب ان تحل الطائرات محلها فى نقل الركاب فى المسافات الطويلة .. اما بواخر الركاب ، فلن **يحول دون انقراضها الا ازدياد الاقبال على السفر عن طاقة الطائرات !**

والتطور الرئيسى المتوقع فى النقل البحرى — فى المستقبل القريب — هو استخدام «التوربينات» الغازية التى توفر اقتصادا فى المساحة داخل السفينة ، وحركة خالية من



عندما يتحقق هذا — ان تسير السفن بسرعة أربعين عقدة . **وقد تؤدى الرغبة فى زيادة سرعة السفينة الى تعديل تصميمها : فتقل حمولتها ، وتبنى على طراز انسيابى ، وربما أصبحت مقفلة كالطائرة مع تكييف**

هوائها !

وقد يمر وقت طويل قبل ان تنشأ منافسة جدية بين الوسائل الجوية والبحرية فيما يتعلق بنقل الشحنات الثقيلة. وسيقابل النقل البحرى منافسة الطائرات الضخمة ببناء سفن اسرع ، وبتحسين وسائل الشحن والتفريغ

طائرات الغد تحلق بسرعة ٢٥٠٠٠ ميل فى الساعة

• **ولسوف** تخلى المحركات ذات الاحتراق الداخلى مكانها – فى الطائرات الحربية والتجارية – للمحركات النفاثة ، التى يقل عدد أجزائها المتحركة عما فى المحركات القديمة ، كما انها أقل احداثا للاهتزازات ، وتستخدم وقودا اكثر أمنا .. فضلا عن أنها تولد قوة أكبر – بالنسبة لوزنها – مما تولده المحركات العادية ، وتمكن من الطيران فى طبقات الجو العليا ، حيث تنخفض كثافة الهواء الى حد يتعذر معه استخدام المروحة .. **ولن تمضى عشر سنوات ، حتى تصل الطائرات التجارية – بفضل استعمال المحركات النفاثة التى تحصل على قوة الدفع من توربينات تعمل بالوقود المحترق بالطريقة العادية – الى سرعة قد تبلغ خمسمائة ميل فى الساعة .. وقد تزداد الى الفين فى طبقات الجو العليا !**

أما الدفع الصاروخى الحقيقى ، فيستلزم الارتفاع الى ما يزيد على مائة الف قدم ، وستربو السرعة اذ ذاك على ٥٠٠٠ ميل فى الساعة ، وقد تصل – من الناحية النظرية على الاقل – الى ١٨٠٠٠ ، وربما وصلت فى الطبقات العليا الى ٢٥٠٠٠ ميل فى الساعة . ولكن المشكلات التى تكتنف هذه الاحتمالات ، تبلغ من التعقيد درجة تجعل من الاغراق فى التفاؤل ان نتوقع تحققها قبل خمسين عاما

ولسوف يضاعف هذا من أهمية مشكلة تنظيم حركة المرور

فى الجو . فان الطائرةالعادية تستطيع انتحلق ساعة أو اكثر فوق منطقة المطار ، حتى تصلها اشارة الأمان فتهبط . أما الطائرة النفاثة ، فان سرعتها الفائقة تحول دون ذلك ! . . كما ان الاجراءات الرسمية فىالمطارات ، لاتزال منالبطء والتعقد ، بحيث تضيع على المسافرين مايجنونه من فوائد سرعة الطيران

ولا تزال الحاجة ماسة الى تخفيض نفقات الطيران ، حتى ينتقل من نطاق الكماليات .. ومتى امكن انتاجطائرات تتسع لمائة راكب او اكثر ، فسيزداد الأمل فى تخفيض اجور السفر الجوى الى ما يقل عن اجور انواع الانتقال الاخرى

فى الطريق الى القمر

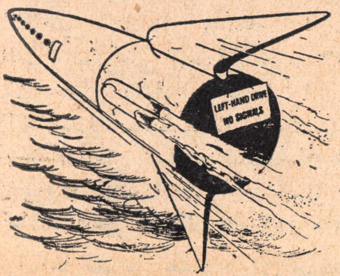
• **والانتقال** الى القمر هو المغامرة الكبرى التى تنتظر الاجيال القادمة . فعلى الرغم منتنبؤاتالعلماء ، الا ان تصميم سفن الفضاء ، لا يزال رسما على ورق .. كما اننا لا يجب ان نغفل ان ارتياد اجواء ومجاهل لا عهد لنا بها ، ينطوى على صعاب قد لا تخطر ببالنا .. **فنحن نعلم مثلا ان هناك طبقة جوية تسمى ((طبقة الأوزون))تمتص الجزء الاكبر منالأشعة الشمسية فوق البنفسجية ، وترتفع درجة الحرارة فيها عما هى عليه على سطح الارض . فاذا تجاوزناها ، دخلنا منطقة أخرى ، ربما كانت قوة الاشعاع فيها كافيةللقضاء على البصر، بل وعلى الحياة !..** كما اننا لا ندرى ما اذا كانت النسب القائمة بين الغازات المكونة للطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ، تتغير اذا ما تخطينا حدودا معينة !

كل هذه الملابسات تبين بجلاء ضرورة القيام باستكشاف شامل للطبقات الجوية ، وهذا ماستقوم به الاقمار الصناعية التى تحمل الاجهزة العلمية لذلك (يلاحظ ان هذا الكتاب نشر فى سنة ١٩٥٠ ، وقد اصبحت الاقمار الصناعية

حديث اليوم) .. ولسوف تسجل هذه القذائف درجات الحرارة فى طبقات الجو العليا ، وتجمع من البيانات ما يكفى للبدء فى تصميم السفينة الجوية التى تخترق الفضاء

« ارصفة » سابحة فى الفضاء

• **ولا** يخالجنا أى شك فى أن هذه الصواريخ — أو القذائف ، أو الاقمار الصناعية — ستصل الى القمر ، وربما عادت بمعلومات ذات أثر كبير فى تمكين الانسان من السفر اليه .. ومن المحتمل ان تكون اول قذيفة تنقل الانسان فى الفضاء ، مشابهة فى الشكل للصاروخ « ف ٢ » وان تكن اكبر منه حجما .. وسيكون لقائدها « قمرة » مكيفة الضغط ، مجهزة بكل ما يقيه شر الانتقال المفاجىء — بعد مبارحته نطاق الجاذبية الارضية — الى سرعة هائلة .. ومن المحتمل ان تكون هذه القذيفة مزودة بقمرة قابلة للانفصال ، حتى يمكن فصلها عن جسم القذيفة ، ومتابعة هبوطها بالمظلات « الباراشوت » ، اذ ان الجاذبية الأرضية كفيلة بان تجعل الصاروخ يندفع الى الأرض بسرعة خطيرة ، ومن ثم فسيكون من الضرورى تفجيره قبل ان يرتطم بالأرض.



وإذا كان السفر الى القمر هو حديث الجميع فى أيامنا هذه ، الا انه لاينتظر ان يتحقق قبل مائة عام ، وحتى اذا

تحقق فان الاهتمام به لا يتعدى الناحية التجريبية ، اذ ان من المعلوم أن القمر كوكب ميت ، لا تطيب الحياة فيه ولو أمكن الوصول اليه بسلام .. لذلك فمن المرجح ان تنصرف الجهود بعد الوصول اليه — وهو ما لا نتوقع ان يتحقق قبل مائة سنة — الى انشاء ما يسمى بالأقمار الصناعية .. وهى اشبه بسفن للفضاء ، تظل معلقة فى الجو ، وتدور حول الأرض كالكواكب ، لتكون « ارصفة » أو محطات ذات قيمة حربية بالغة ، اذ انها تمكن من توجيه اذاعات لاسلكية الى اية بقعة فى الأرض ، كما تيسر توجيه القذائف بالراديو فى الحروب . وقد تكهن بعض العلماء بامكان تجميع أشعة الشمس من هذه « الارصفة » ، وتسليطها على اى مكان فى الأرض فتحرقه !

مستعمراتنا فى الكواكب الأخرى

• **على** ان هناك استعمالات مفيدة للكواكب الصناعية ، منها امكان توجيه اذاعات تليفزيونية اليها ، فتعيد ارسالها الى الأرض ، اذ ان ارتفاعها الشاهق يمكنها من مغالبة العقبات التى تعترض ارسال هذه الاذاعات — على سطح الارض — الى مدى بعيد . كما ان البيانات الجوية التى ستسجلها هذه الكواكب ، ستكون ذات قدر كبير فى التنبؤات الجوية الطويلة الأجل!. **وهناك امل كبير فى استخدام الفرق بين حرارة الشمس الهائلة وبرودة الفضاء التى قد تصل الى درجة الصفر المطلقة ، فى توليد الكهرباء اللازمة لادارة أى مشروع كهربائى !**

اما تموين هذه « الارصفة » أو الكواكب الصناعية — من الأرض — فسيتم بوساطة الصواريخ . ولن نلبث ان نرى ان من الأمور العادية ، ان ينطلق الشباب لتأدية دورهم فى الخدمة ، فى الكواكب بدلا من المستعمرات !

ويبدو أن القمر هو الكوكب الوحيد الذى تعتبر محاولة الوصول اليه معقولة فى حدود الخيال العلمى الحالى . لأن الوصول الى الكواكب الأخرى يتطلب فترات طويلة، مهما تكن السرعة .. **وليس معنى هذا ان الوصول لهذه الكواكب «مستحيل» ، بيد أنه لن يتم قبل مرور مئات السنين !..**
أما بالنسبة للقمر ، فان العقبة الجوهرية التى تعترض رحلتنا اليه ،تتمثل فى ضرورة وقاية جوف السفينة الجوية من الحرارة الشديدة - اثناء اختراقها الطبقة الايونية - ومن البرودة القاسية التى تسود الفضاء الخارجى.. ثم ان الهبوط الى سطح القمر ، سيحاط بمشكلات اخرى ، منها انخفاض الجاذبية الى حوالى خمس مقدار الجاذبية الأرضية ، وشدة البرودة ،ونقص الاوكسجين ، وكثافة الغبار .

السيارات الطائرة فى الغد القريب !

• **ومن** المحقق ان العلم سيقهر كل هذه الصعوبات ، الا ان الثمن الذى سيدفع فى سبيل ذلك - من الارواح والنفقات - سيكون باهظا .. وبالرغم مما يبدو من ثقة ، فلن يكون فى الامكان اطلاق قذائف مأهولة بالناس ، قبل القيام بعدة تجارب بقذائف موجهة من الارض ، ومجهزة بأدوات علمية ، لدراسة كل ما يمكن توقعه من الظروف.. ولعل استخدام الطاقة الذرية - بدلا من انواع الوقود المعروفة - هو أهم عامل ينتظر ان يؤثر فى مستقبل الانتقال عبر الفضاء .

والآن ، لنهبط ثانية الى سطح الأرض ، لنستعرض ما يخبئه لنا المستقبل .. ولعل ابرز ما يبدو ، هو توقع الوصول الى صنع السيارة الطائرة ، بفضل اكتشاف معادن

او سبائك متناهية فى خفة الوزن ، وباستخدام الوقود الذرى .. وسيخفف هذا من وطأة المرور على الطرق العادية ، بلا شك .

والاتجاه العام – فى وسائل النقل – ينحصر فى أمرين : السرعة وتوافر أسباب الراحة .. ولن يمضى نصف قرن من الزمان ، حتى تصبح مواصلاتنا الحالية ، بضوضائها وبطء حركتها ، فى ذمة التاريخ !

عندما تغرر الأرقام بالعلماء !

◆ قد يستطيع العلماء ـ بما أوتوا من أساليب البحث الفنى ـ ان يكشفوا عن أدق الحقائق ، وأن يرسموا للواقع أكمل صورة ٠٠ ولكنهم حين يتجاوزون البحث والدراسة ، الى علاج ما يجب ان يكون ، ووضع أساليب الحياة للناس ، يزلون أحيانا ، اذ تقودهم الأرقام والبيانات الى ٠٠ سراب !

ولعل هذا هو الذى جرى لكينزى وزملائه فى الفصل الذى نقدمه لك ، فيما يلى ٠٠ أو لعل الانحلال الذى دب فى المجتمع الأمريكى ـ والذى أوردنا لك الاحصاءات المتعلقة به فى الحلقة السابقة ـ هو الذى صبغ عقلية هؤلاء العلماء ، عندما حاولوا أن يخرجوا من نطاق البحث العلمى الى نطاق الارشاد ٠٠ فاذا ما خالوه اصلاحا ، يكاد يكون دعوة الى الفجور !٠٠ واذا كنا ننقل هذه الآراء الى المعنيين بشئون التربية والاصلاح الاجتماعى لدينا ، فانما نقدمها كجزء من دراسة علمية بحتة ، ليفيدوا من الصالح منها ، وليستعينوا بما لا يصلح فى تجنب الشطط ٠٠ « أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » !

القانون يحرم المعابثة ٠٠ والبوليس يغض الطرف عنها !

◆ تثبت البيانات ان الاستنكار الدينى والاستهجان العام للمعابثة ، ليس لهما سوى أثر ضئيل فى سلوك الشبان الذين ينتمون الى الأجيال الحديثة . ومع ذلك فان كثيرين ممن يقدمون على المعابثة ، يزاولونها وفى نفوسهم شعور بالذنب . وعندما تبلغ معقبات هذا الشعور أقصاها ، فانها قد تؤدى الى مشكلات تؤثر فى نمو الشخصية ، أو فى التوافق والتكيف الجنسى عند الزواج ، أو فى المقدرة على التوافق الاجتماعى ٠٠ كما أنها قد تحدث أنواعا كثيرة من العقم ، أو من الاستعاضة بعلاقات مع أفراد من نفس الجنس عن علاقات مع أفراد من

الجنس الآخر ، أو مشكلات أخرى قد تكون ذات نتائج ضارة فى الحياة الزوجية !

• **فاذا** انتقلنا الى استعراض قيمة المعابثة من الناحية القانونية ، وجب أن نذكر — أولا — أن القوانين الجنسية الأنجلو — أمريكية مقتبسة كلها عن الشرائع الدينية ، ومتمشية معها فى الغالب . ومع أن المعابثة لم تحرم صراحة — أو بالذات — فى القانون ، كلون معين من ألوان النشاط الجنسى ، الا أن كثيرا من الأساليب الخاصة بالمعابثة يدخل تحت طائلة العقاب ، كجنح مخلة بالآداب ، أو كجنايات . فاذا كان أحد الطرفين قاصرا ، اعتبرت المعابثة كانحراف ، أو كمساهمة فى افساد **وتكون العقوبة قاسية اذا كان أسلوب المعابثة قد اعتمد على الأعضاء التناسلية !..** وتحتوى البيانات التى جمعناها على حالات كان رجال البوليس يستغلون فيها ظروف المتهمين لابتزاز نقود منهم مقابل عدم القاء القبض عليهم ، وهذا — فى حد ذاته — مثال لاستحالة القضاء على مثل هذا السلوك الجنسي الشائع !

المتاعب البدنية التى تنشأ عن المعابثة

• **واذ** ننتقل الى القيمة التى للمعابثة من الناحية المادية والبدنية ، نكرر ما سبق أن ذكرناه من أن المعابثة تجد اقبالا — فى الأغلبية الساحقة من الحالات — لما تسببه من ارضاء ومتعة مباشرين . وقد رأينا فى الاحصاءات أنها كانت مصدرا للتفريج البدنى — الممثل فى بلوغ ذروة اللذة — لحوالى ٣٩ فى المائة من الاناث اللائى شملتهن دراساتنا ، ولحوالى ٤٥ فى المائة من اللائي هن فى مرحلة الشباب ، فى الوقت الحاضر

على أن ثمة متاعب بدنية خليقة بأن تنشأ عن ازدياد عدد مرات التهيج — بسبب المعابثة — دون الوصول الى درجة ذروة اللذة . ففى مثل هذه الحال ، يجد كثيرا من الشبان

ـ ذكورا واناثا ـ أنفسهم فى اضطرابات عصبية ، واختلال فى التفكير ، وعجز عن تركيز اهتمامهم فى أمور أخرى غير أحوالهم هذه ، وتقصير فى الدقة والمهارة فيما يمارسون من أعمال .. ثم يعانون آلاما مبرحة فى العانة . **وقد يضطرون الى ممارسة مجهودات بدنية شاقة ، أو الى ممارسة الاستمناء أو الجماع أو بعض الاتصالات الجنسية مع أفراد من جنسهم ، قبل أن يتغلبوا على اضطراباتهم هذه !..** واذا كان الاضطراب لا يبلغ لدى بعض الاناث مبلغه لدى الذكور ـ من جراء قصور المعابثة عن تحقيق ذروة اللذة ـ الا أنه يبلغ هذا المبلغ لدى بعض منهن . وقد وجدنا فى دراساتنا أن نصف الاناث عانين اضطرابات فى بعض المناسبات ، كما ان ٣٥ فى المائة من الاناث عمدن الى الاستمناء

مثل هذه المتاعب تنشأ أصلا عن أن التهيج الشهوى يتضمن توترات عضلية تصل الى درجة عالية أثناء النشاط الجنسى ، ثم تنفرج التوترات فجأة عند بلوغ ذروة اللذة . ولسبب لا نفهمه حتى الآن ، يجد كثير من الذكور والاناث أن من العسير التخلص من توتر جنسى حاد ، الا عن طريق بلوغ ذروة اللذة .. فاذا لم يتحقق هذا ، فقد يستغرق التخلص من التوتر وقتا يقدر أحيانا بالساعات . أما اذا تحققت ذروة اللذة ، فان انفراج التوتر قد يتم فى ثوان معدودات أو فى دقيقة

المعابثة تمد الاناث بأولى المعلومات الجنسية

• **بقى** أن نتحدث عن القيمة الاجتماعية للمعابثة .. وأول ما نخرج به من دراساتنا ، أن المعابثة كانت ذات قيمة بين الاناث لانها كانت مصدر أول تهيج شهوى لدى ٣٤ فى المائة من أولئك اللائى خبرن هذا التهيج ، ولدى ٥١ فى المائة ممن خبرن الاستجابة ـ لأول مرة ـ لأى نشاط جنسى مع الجنس الآخر . كذلك كانت المعابثة هى المصدر الأول لذروة اللذة لدى

٢٤ فى المائة ممن خبرن هذه الدرجة بين جميع الاناث اللائى أجرينا دراساتنا عليهن ، كما كانت المصدر الأول لبلوغ ذروة اللذة فى علاقة مع الجنس الآخر لدى ٤٦ فى المائة من هؤلاء الاناث جميعا . فهى – بهذا الوضع – لا تقل قيمة فى السلوك الجنسى عن ألوان الجماع الثلاثة : السابق للزواج ، والذى يتم فى ظلال الزوجية ، والذى يتم بين أفراد متزوجين وشركاء غير أزواجهم

والواقع أن المعابثة هى التى تمد معظم الاناث بأولى المعلومات التى تبصرهن بأى اتصال بالجنس الآخر .. وهى فى هذا تفوق تأثيرات البيت أو المدرسة أو التعاليم الدينية أو المحاضرات والكتب ، أو دراسة علم الاحياء أو علم الاجتماع أو الفلسفة .. بل وتفوق الجماع ذاته !.. فهن لا يتلقين المعرفة بالعلاقات الجنسية مع الجنس الآخر من الوسط المنزلى الذى ينشأن فيه ، ولا من التعليمات التى تدلى اليهن بها الأمهات .. بل ان البيت والكنيسة والمدرسة هى – على النقيض – أهم المصادر للنفور الجنسى ، وللعزوف عن كل نواحى الجنس ، وللخوف من المتاعب البدنية التى قد تترتب على الاتصال الجنسى ، وللشعور بالاثم لدى كثيرات من الاناث حتى بعد الزواج

أهى دعوة الى الفجور ؟ !

• **ان** اخفاق الأنثى فى بلوغ ذروة اللذة فى اتصالها الجنسى مع زوجها قد يكون مصدرا كبيرا من مصادر تصدع الحياة الزوجية . وفى محاولتنا الكشف عن بعض مصادر هذه العقبة – فى فصل سابق – تعرضنا لأثر هذا الاخفاق

وهذه ظاهرة فى المجتمع الأمريكى تحتاج الى دراسة .. فنحن نميل الى الاعتقاد بأن ثمة عوامل أو علاقات طارئة تتدخل فى هذه الظاهرة ، لأن التحليلات التى أجريناها فى دراساتنا لها تدل على أن المعابثة تؤدى الى أكثر من اكساب الأنثى معرفة بذروة اللذة .. **فهى فى الواقع تقودها الى حل**

المشكلات البدنية والنفسية والاجتماعية التى يتطلبها التكيف العاطفى للتوافق مع الغير .. أى مع الزوج عند الزواج ! (١)

ونظرا للقيود الاجتماعية التى تعارض هذا اللون من النشاط الجنسى ، فان أساليب المعابثة تكتسب تدريجيا خلال تجارب الأنثى قبل الزواج . فهى قد تقبل القبلة البسيطة قبل أن ترتضى القبلة العميقة بزمن طويل .. وقد يمضى وقت أطول قبل أن تقبل أى عبث بالثدى أو الأعضاء التناسلية .. **فالسنوات السابقة على الزواج تهيىء فرصة لتعلم هذه الأمور . أما بعد الزواج ، فان التدرب البطىء والتدريجى عليها كثيرا مالا يكون ميسورا ، اذ أن معظم الذكور لا يصبرون شهورا أو أعواما ريثما تتعرف زوجاتهم على الأساليب الجنسية .** وقد يكون عدم تقبل الزوجة لبعض هذه الأساليب سببا فى انهيار الحياة الزوجية .. وحتى اذا لم تنفصم عرى الزوجية ، فانها قد تستمر وعدم الرضى يخيم عليها . ومن ثم يتعذر اصلاحها !

وخبرة الأنثى بالمعابثة — قبل الزواج — تكسبها دراية بتعديل انفعالاتها العاطفية بما يمكنها من الانسجام والتكيف مع عدة أنواع من الذكور(١) . وهذا قد يكسبها حكمة تمكنها من اختيار الذكر الذى يمكن أن ترتبط به مدى الحياة برباط الزوجية !

---

(١) هذا الجزء ننقله على علاته ، كجزء من بحث علمى محض ، ليس لنا ان نعدل فيه أو نحرف أو ان نتعلق بآراء خاصة . ولكننا ندعو المعنيين بهذه الدراسات فى مصر والعالم العربى الى دراسته بكثير من العناية وباستخدام الأساليب العلمية . لأن الرأى الذى استخلصه علماء أمريكا قد يكون مستساغا بالنسبة للمجتمع الأمريكى ، فى حين انه جد مستهجن بالنسبة للمجتمع العربى ، بل هو قد يبدو كدعوة للفجور . ومن المحتمل ان يتجلى خطل مثل هذه الدعوة اذا بحثت علميا ، وبحثت مع ظروف كل من المجتمعين .. فهل نجد من علمائنا واخصائيينا من يتجشمون عناء هذا البحث ؟!

عبث الطفولة وآثاره بعد الزواج

• **ولقد** اثبت ٦٤ فى المائة من المتزوجات اللائى اجرينا دراساتنا عليهن ، أنهن عرفن « ذروة اللذة » بمعناها الجنسى قبل زواجهن . ولقد كانت تجربة بعضهن محدودة ، فى حين أن فريقا آخر منهن خبرن ذلك فى مرات كثيرة ومنتظمة .. على أن الجماع لم يكن مصدرا لأكثر من ١٧ فى المائةمن مرات بلوغ ذروة اللذة لديهن قبل الزواج . أما المرات الأخرى ، فتمثلت مصادرها فى ألوان النشاط الجنسى الأخرى . **ومع ان كثيرا من الناس يأخذون « الجماع » و « الاتصال الجنسى » علىانهما لفظان مترادفان لمعنىواحد ، الا أنالجماع الحقيقى ليسسوى قسط ـ وانيكنقسطا ذا قيمةوأهمية ـ فى النشاط الجنسى قبل الزواج . ذلك لأن القيمة الاجتماعية للجماع تفوق فى الأهمية وظيفته العملية كمصدر للتفريج لدى الانثى** . اذ ان معناه ـ فى ثقافتنا ـ محوط بالاستنكار الخلقى والقانونى الذى ينظر به المجتمع الى مثل هذا اللون من ألوان النشاط قبل الزواج .. وقد كانهذا سببا فىوضع العراقيل فى طريق دراساتنا ، عندما اتجهنا الى تقدير دقيق للعلاقة بين الجماع ـ قبل الزواج ـ وبين الحاجات الجنسية للفرد ، والمصالح الجوهرية للمجتمع

(يتبع)



درس الموسيقى
للفنان « جول ألكسيس موينييه » بمتحف اللوكسمبرج بباريس